يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي

فاتح شطر ما وراء النّهر(١)
وشطر خُراسان(٢) وشطر طَبَرِسْتَان(٣)

تـأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطّاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي



فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الأول ـ المجلد الثامن والثلاثون
بغـــداد
رجب ١٤٠٧ هـ ـ آذار ١٩٨٧ م

يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي

فاتح شطر ما وراء النّهر(1) وشطر خُراسان(2) وشطر طَبَرِسْتَان(3)

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع العلمي)

نسبه وأيامه الأولى

هو أبو خالد يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأَزْدِي ، وهو من أزْد العَتِيْك أزْد (دَبا) (4) .

أبوه : المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة بن سَرّاق (5) بن صُبَيح (6) بن كِنْدِيّ

(1) ماوراء النهر : ماوراء نهر جيحون ، فما كان في شرقيّه يقال له : ماوراء النهر ، وما كان في غربيه فهو خُراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٧٠) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦١) وآثار البلاد واخبار البلاد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ ـ ٥١٥) .

(2) خُراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجتان الى جنوبها ، وتمتد من الشمال الى اقصى تخوم ايران ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٤٥ ـ ١٦٠) ومعجم البلدان (٣/٤٠٧) .

(3) طبرستان : ولاية كبيرة من اكبر مدنها (آمل) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٧) والمسالك والممالك للاصطخري (١٢٤) .

(4) دبا : اسم موضع بين عُمان والبحرين ، انظر التفاصيل في وفيات الأعيان (٤/٤٣٩) والمعارف (٣٩٩) ، وهي مدينة بعُمان قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها ، انظر معجم البلدان (٤/٣٠) .

(5) ويقال : ابن سارق ، انظر الاستيعاب (٤/١٦٩٢) والاصابة (٧/١٠٥) .

(6) في وفيات الأعيان (٤/٤٣٢) : ابن صبح ، وكذلك في جمهرة انساب العرب (٣٦٧) .

ابن عمرو بن وائل بن الحارث بن العَتيك بن الأَسد بن عِمْران بن عمرو مُزَيْقياء (٨) بن عامر بن ماء السماء (٩) بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأَزْد الأَزْديّ العَتَكيّ (١٠) .

وأمّه : رَحِمَة (١١) الأَزْدِيَّة ، وخاله : جُدَيْع بن سعيد بن قَبيْصَة بن سَرّاق الأَزْدِيّ ؛ (١٢) فأمّه رَحِمَة بنت سعيد بن قَبيْصَة ابن سَرّاق الأَزْدِيّة ، فيكون يزيد أَزْدِيّاً من الأب والأم ، وأمّه بنت عمّ أبيه .

ولد سنة ثلاث وخمسين الهجرية (١٣) (٦٧٢ م) ، فشبّ وترعرع في كنف أبيه القائد الذي تولّى القيادة في وقت مبكّر على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين الهجرية (١٤) (٦٥١ م) واشتهر قائداً ووالياً حتى توفاه الله سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) وهو على خُراسان وقد كان المُهَلّب من أبرز قادة الفتح ، برز في الفتوح ، وبرز في إخماد

(٧) في الاصابة (١٠٥/٧) ووفيات الأعيان (٤٣٢/٤) ، ابن الأزد .

(٨) مزيقياء : لقب عمرو المذكور ، وكان من ملوك اليمن ، انظر وفيات الاعيان (٤٣/٤) .

(٩) في وفيات الأعيان (٤٣٩/٤) : عامر ماء السماء ، لا عامر بن ماء السماء ، كما ورد في أعلاه ، وقد لقّب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه ، فشبّه بالغيث .

(١٠) أسد الغابة (٢٣١/٥) ؛ وانظر الاصابة (٣٠٣/٣) و (١٠٥/٧) والاستيعاب (١٦٩٢/٤) وطبقات ابن سعد (١٠١/٧) و (١٢٩/٧) ووفيات الأعيان (٤٣٢/٢) والمعارف (٣٩٩) والبلاذري (٣٠٧) وسرح العيون (١٠٢) والتنبيه والاشراف (٣٢٠) ، واسم أبي صفرة : ظالم ، انظر جمهرة انساب العرب (٣٦٧) .

(١١) الطبري (٣٥٣/٦) .

(١٢) الطبري (١٩٦/٦) .

(١٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢٠٦/١) ووفيات الأعيان (٣٤٩/٥) .

(١٤) ابن الأثير (٤٤٠/٤) .

الفتن الداخلية ، فكان يزيد مع أبيه في الفتح وفي إخماد الفتن الداخلية منذ شبّ عن الطّوْق واستطاع حمل السّلاح ، فاكتسب خبرة عملية في القيادة والادارة في محيط والده المتميِّز بالكفاية والشجاعة والحنكة ، مما كان له أثر كبير في حياته العمليّة قائداً وإدارياً . .

وكان يزيد السّاعد الأيمن لأبيه المهلّب قائداً وإداريا ، وقد سأل الحجاج ابن يوسف الثّقفيّ عن أولاد المهلّب ، فقيل له : « . . . وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً (٤) » فكتب الحجّاج إلى المهلّب يشكره ويأمره أن يولي (كَرْمان)(١٥) مَنْ يثق به ويجعل فيها مَن يحميها ، فاستعمل المهلّب على (كَرْمان) يزيد ابنه (١٦) ، وأقرّ الحجّاج تولية يزيد ، مما يدلّ على ثقة المهلّب بابنه يزيد وثقة الحجّاج به على الرغم من أنّ تولية يزيد (كَرمان) كانت سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٤٦ م)، ويومها كان عمر يزيد لا يزيد على خمس وعشرين سنة ، أي أنّه كان في ريعان الشباب .

ومن المؤكد أنّ أعباء المهلّب القتالية والادارية وانغماس ولده يزيد في معاونة والده المهلّب في تحمل بعض أعبائه الثقيلة ، حرمت يزيد من التفرغ لاستيعاب العلوم النظرية السّائدة في حينه : علوم القرآن والحديث واللّغة والأدب والتاريخ والفقه ، ولكنه لم يحرم نهائياً من تعلّم تلك العلوم على أبرز الأساتذة والشيوخ المعروفين في حينه بالبصرة والكوفة ، وبهذا استكمل يزيد شخصيته في تلقي العلوم النظرية والعملية ، وأعدّ نفسه إعداداً كاملاً لتحمل ما تنتظره من اعباء جسام .

وفي طريق عودة المهلّب من بلاد ما وراء النهر إلى (مَرْو) مقرّه في

---

(١٥) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ، ذات بلاد وقرى واسعة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤١/٧) ، وانظر حدود كرمان وتفاصيل عنها في المسالك والممالك للاصطخري (٩٧ — ١٠٠) .

(١٦) ابن الأثير (٤٤١/٤) .

خُراسان سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، توفيّ المُغيرَةْ بن المهلّب ، وكان أبوه المهلّب قد استخلفه على عمله في (خُراسان) ، فأتى نعيهُ يزيدَ ابن المهلّب وأهل العسكر ، فلم يُخبروا المهلّب ، ولكن يزيد أمر النساء فصرخن ، فقال المهلّب : « ما هذا » ، فقيل : مات المغيرة ! فاسترجع المهلّب وجزع حتى ظهر جزعه . ودعا يزيد ووجّهه إلى (مرو) ، وأوصاه بما يعمل ، وإنّ دموعه لتنحدر على لحيته .

وسار يزيد في ستين فارساً ، ويقال : في سبعين ، فلقيهم خمسمائة من الترك في مفازة (بُسْت) (١٧) ، وطلبوا إعطاءهم شيئاً من المال وإلاّ قاتلوهم ، فأبى يزيد أن يعطيهم شيئاً ، لأنه ابتزاز والخائف يسمح بابتزازه . ولكن مُجّاعة بن عبد الرحمن العَتَكِي أعطاهم ثوباً وقوساً وأشياء تافهة أخرى ، فانصرف الأتراك على مضض ، وغدروا وعادوا إلى مفرزة يزيد . ونشب القتال بين الجانبين واشتدّ ، وكان مع يزيد رجل من الخوارج أخذه أسيراً في إحدى المعارك التي دارت بين الخوارج والمهلّب وشهدها يزيد ، فقال له الخارجي : « استَبْقني » فاستبقاه . وحمل الخارجيّ على الترك حتى خالطهم وقتل رجلا منهم ثم رجع إلى يزيد ، كما قتل يزيد عظيماً من عظمائهم ، ورُمي يزيد بساقه . واشتدّت شوكة الترك ، فصبر لهم يزيد حتى حاجزوهم ، وأصرّ الترك على أخذ شيء من مفرزة يزيد أو يموت أحد الجانبين المتقاتِلَينْ . فلم يعطيهم يزيد شيئاً .

وقال مُجّاعة : « أُذكّرك الله ! قد هلك المُغيرَة ، فأنشدك الله أن تهلك ، فتجمع على المهلّب المصيبة » . فقال يزيد : « إنّ المغيرة لم يَعْدُ أجلَه ، ولستُ أعدو أجلي » ، ثم رمى إليهم مُجّاعة بعمامة صفراء ،

(١٧) بست : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، وهي من اعمال كابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٧٠ ـ ١٧٨) .

فاخذوها ثم انصرفوا . (١٨)

وفي هـذا الاصطدام المسلّح قال الراجز :

يزيدُ ياسيفَ أبي سَعِيدْ (١٩)
قد علِمَ الأقوامْ والجنودْ
والجَمْع يوم المجمَع ِ المشهودْ
أنّك يومَ التُّرْكِ صلبُ العودْ

وقال الأشقري :

والتُّرْكُ تعلمُ إذ لاقَى جموعَهُمُ
أن قد لقوه شِهاباً يَفرِجُ الظُّلَما
بفِتْيَةٍ كأُسُودِ الغابِ لم يَجِدوا
غير التأسّي وغير الصبرِ مُعْتَصَما
نرى شرَائج (٢٠) تَغْشى القومَ من علَقٍ (٢١)
وما أرى نبوةً منهم ولا كزما (٢٢)
وتَحْتَهُمْ قُرّحٌ (٢٣) يَرْكَبْنَ ما رَكِبوا
من الكريهة حتى ينْتعلنَ دَمَا (٢٤)

(١٨) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٥٠ ـ ٣٥١) وابن الأثير (٤/٤٧٢ ـ ٤٧٣) .
(١٩) ابو سعيد : هو المهلّب بن أبي صُفرة الأزديّ والد يزيد .
(٢٠) الشّرائج : جمع الشّريج ، والشرائج : الوان مختلفة من كل شيء ، ويريد هنا من البشر .
(٢١) علق : جمع علَقَة . دود أسود يمتص الدم ويكون في الماء الآسن ، ويريد التهوين من شأنهم .
(٢٢) كزم فلان : هاب التقدم على الشيء ، فهو كَزِمٌ .
(٢٣) قرّح : جمع القارح ، والقارح من ذي الحافر : ما استتمّ الخامسة من عمره .

في حازَّةِ الموتِ حتى جَنّ ليلُهُمُ
كِلاَ الفريقين ما وَلّى ولا انهزما (٢٤)

وحين حضرت الوفاة المهلّبَ ، دعا حَبيباً ومَنْ حضره من ولده ، ودعا بسهامٍ فَحزِمت ، وقال: « أترونكم كاسريها مجتمعةً ؟ » ، قالوا : لا قال : أترونكم كاسريها متفرِّقةً ؟ » ، قالوا نعم ، قال : « فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصِلة الرَّحِم ، فانّ صلة الرَّحِم تنسئ في الأجل ، وتُثْرى المال ، وتُكْثِرُ العَدَد . وأنهاكم عن القطيعة ، فانّ القطيعة تُعْقِبُ النّار ، وتورِث الذلّة والقِلّة ، فتحابّوا وتواصَلوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختَلفوا ، وتبارّوا تجتمعْ أمورُكم . إنّ بني الأُم يختلفون ، فكيف ببني العَلاّت (٢٥) ! وعليكم بالطّاعة والجماعة ، وليكن فعالُكم أفضل من قولكم . فإنِي أحبّ للرّجل أن يكون لعمله فضلٌ على لسانه ، واتّقوا الجوابَ وزَلّةَ اللّسان ، فأنّ الرجل تزلّ قدمُه فينتعش من زلّته ، ويزِلّ لسانه فيهَلِك . اعرِفوا لمن يغشاكم حقّه ، فكفى بغُدوّ الرجل ورَواحه إليكم تذكرةً له . وآثروا الجُوْدَ على البُخْل ، وأحِبّوا العَرَب واصطنعوا العُرْف . فان الرجل من العرب تَعِدُه العِدةَ فيموتَ دونَك ، فكيف الصنيعة عندَه ! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة ، فانها أنفع في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فانْ أخَذَ رجل بالحزم فظهر على عدوّه قيل : أتى الأمرَ من وَجْهه ، ثم ظفِر فحُمد ، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل : ما فرَّطَ ولا ضيّعَ ، ولكنّ القضاء غالب ، . وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنَن ، وأدب الصّالحين ، وإيّاكم والخِفّة

(٢٤) الطبري (٦/٣٥١ – ٣٥٢) .
(٢٥) العَلاّت : جمع العَلّة وهي الضرّة . وبنو العَلاّت : بنو رجل واحد من امهات شتى .

وكثرَةَ الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيدَ ، وجعلتُ حبيباً على الجند حتى يَقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيدَ » ، فقال له المُفَضَّل : « لو لم تقدّمه ، لقدّمناه » .

ومات المهلّب ، وأوصى إلى حبيب ، فصلّى عليه حبيب ، ثمّ سار إلى (مَرْوَ) .

وكتب يزيد إلى عبد الملك بن مروان واستخلافه إياه ، فأقرّه الحجّاج (٢٦) .

وهذا دليل واضح على ثقة المهلّب بابنه يزيد ، وتفضيله على سائر إخوته على الرغم من أنه لم يكن أكبرهم سناً ، فقد مات ابنٌ لحبيب بن المهلّب ، فقدّم أخاه يزيد ليصلي عليه ، فقيل له : أتقدّمه وأنت أسنَ منه ، والميت ابنك ! ؟ فقال : « إنّ أخي قد شرّفه الناس ، وشاع فيهم له الصيت ، ورمقته العرب بأبصارها ، فكرهت أن أضع منه ما قد رفعه الله تعالى » (٢٧)

ولم يكن يزيد موضع ثقة أبيه المهلّب وإخوته أبناء المهلّب حسب ، بل كان موضع ثقة أميره المباشر الحجّاج بن يوسف الثَّقَفِيّ الذي كانت خرُاسان إحدى ولاياته ، وثقة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الذي كان قمة الدولة التي لاتغيب الشمس عن بلادها ، وثقة النّاس عرباً وعجماً ، مما يدلّ على كفاياته العالية المتميّزة .

ولعلّ مما يجلب النظر ، أنّ يزيد حين استخلفه أبوه المهلّب على خُراسان سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) كان ابن ثلاثين سنة (٢٨) ، ولم يكن أكبر إخوته في السنّ ، واستخلاف الأكبر سناً من تقاليد العرب المعروفة

---

(٢٦) الطبري (٦/٣٥٤ ـ ٣٥٥) وابن الأثير (٤/٤٧٥ ـ ٤٧٦) وانظر وفيات الأعيان (٥/٣٣٠ ـ ٣٣١) .

(٢٧) وفيات الأعيان (٥/٣٢٧) .

(٢٨) المعارف (٤٠٠) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٢) .

التي قلّما يخرجون عنها إلاّ في حالة التفوّق الواضح بالكفايات للأصغر سناً على الأكبر منه ، مما يدلّ على تفوق يزيد في كفاياته على إخوته جميعاً : الكبير منهم والصغير .

وتَوَلّي خُراسان التي هي من أكثر الولايات الاسلامية أهميّة وتفجّراً في حينه ، ويَزيد في الثلاثين من عمره ، دليل آخر على كفاياته العالية المتميزة .

لقد فرض يزيد نفسه بكفاياته العالية على الأحداث وعلى المناصب الرفيعة وهو لايزال في ريعان الشباب غضّاً فتيا ، فيا قرب ذلك من مولد ، ويابُعْد ذلك من سؤدد .

الفاتح

١ ــ المرحلة الأولى

أ . في سنة ثمانين الهجريّة (٦٩٩ م) . قطع المهلّب نهر (بَلْخ) (٢٩) ، وهو نهر (جَيْحُون) ونزل على (كِشّ) (٣٠) .

وأتى المهلّب وهو نازل على (كِشّ) ابن عمٍّ ملك(الخُتَّل) (٣١) ، وملك الخُتَّل يدعى (السَّبَل) (٣٢) ، فدعاه إلى غزوها .

---

(٢٩) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان ، من اجلّ مدن خراسان واذكرها واكثرها خيراً وأوسعها غلّة ، تحمل غلّتها الى جميع خراسان والى خوارزم ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٥٥ ــ ١٥٦) ومعجم البلدان (٢/٢٦٣ ــ ٢٦٤) وتقويم البلدان (٤٦٠ ــ ٤٦١) .

(٣٠) كش : مدينة تقارب سمرقند ، من اقليم الصغد احد أقاليم بلاد ماوراء النهر . انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٨١ ــ ١٨٢) ومعجم البلدان (٧/٢٥٠ ــ ٢٥١) وتقويم البلدان (٤٩٠ ــ ٤٩١) .

(٣١) الختّل : بلاد الوخش في قسمها الشمالي حيث مخرج نهر (وخشاب) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٤٠١) .

(٣٢) السَّبَل : لقب ملك الختّل . وطرخون : ملك الصغد . رتبيل ملك كابل . واخشاد : ملك فرغانة . والسَّبَل يعنى اصطلاحاً ملك من ملوك ماوراء النهر والخاص بالختّل فقط من بلاد ماوراء النهر .

ووجّـه المهلّب ابنه يزيد مع ابن عمّ ملك الخُتّلَ ، فنزل يزيد ناحية ، ونزل ابن عمّ ملك الخُتّل ناحية أخرى ، والناحيتان في أرض الخُتَّل .

وبيّـتَ (السَّبَلُ) ابن عمـّـه . فأخذه وقتله .

وحصر يزيد قلعة ملك الخُتَّـل ، فصالحوه على فدية حُـملت إليه ، فرجع يزيد عنهـُم ((٣٣) ، بعد أن أعاد فتحه من جديد .

وكان هذا الفتح على عهد المهلّب ، وكان يزيد يومها قائداً مرؤوسا .

ب . وبعد موت المهلّب ، أصبح يزيد سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) على خُراسان والياً وقائدا ، فغزا مغـازا كثيرة ، واستعاد فتح (البُـتَّم) (٣٤) على يد ابنه مُـخَـلَّـد .

وغزا يزيد (خُوَارِزْم) (٣٥) وأصاب سبياً واستعاد فتحها (٣٦) .

وليس هناك نص يشير إلى سنة فتح (البُـتَّم) و(خُـوَارِزْم) ، ولكن يزيد بقى على خراسان من سنة اثنتين وثمانين الهجرية إلى سنة خمس وثمانين

---

(٣٣) الطبري (٦/٣٢٥) وابن الأثير (٤/٤٥٣) ، ووردت : السَّبَل في ابن الأثير (٤/٤٥٣) : الشبل ، وهذا خطأ النسّاخ ، ويبدو انهم لم يكونوا يعرفون معنى السَّبَل ، فجعلوه : الشبل الذي هو ابن الأسد ، ولا يخطأ ابن الأثير مثل هذا الخطأ ، ولكن النسّاخ الذين قد يجهلون التاريخ يمكن أن يقعوا في مثل هذا الخطأ .

(٣٤) البتَّم : اسم حصن منيع جداً ببلاد فرغانة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٥٧) ، والبتَم : جبال شاهقة منيعة ، فيها حصون منيعة ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٨٤) .

(٣٥) خوارزم : اقليم من اقاليم ماوراء النهر ، يحدّه من الغرب بعض بلاد الترك ، ومن الجنوب خراسان ، ومن الشرق بلاد ماوراء النهر ، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً ، ويقع الاقليم في آخر نهر جيحون ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٦٨ – ١٧٠) ومعجم البلدان (٣/٤٧٤ – ٤٧٩) وتقويم البلدان (٤٧٧ – ٤٨١) .

(٣٦) البلاذري (٥٨٧) .

الهجرية (٧٠١ ـ ٧٠٤ م) ، فلا بدّ أن يكون فتح هذين الأقليمين خلال هذه المدّة الزمنيّة .

ج . وفي سنة أربع وثمانين الهجريّة (٧٠٣ م) ، غزا يزيد قلعة (نِيزْاك) بـ (باذَغِيْس) (٣٧) ، وكان نيزك ينزل بهذه القلعة ، فتحين يزيد غزوه ، ووضع عليه العيون . وبلغ يزيد خروجه فخالفه إليها ؛ فلما بلغ نيزك قدوم يزيد قلعته رجع إليها ، فصالح يزيد على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكانت القلعة من أحصن القلاع وأمنعها ، وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيماً لها .

وقد قال كعب بن مَعْدان الأشقريُّ في وصف القلعة والفتح :

وباذَ غِيْس التي مَنْ حَلَّ ذُرْوَتها
عزَّ الملوكَ فان شا جارَ أوْ ظَلَما
مَنيْعَةٌ لم يَكِدْها قَبْلَهُ مَلِكٌ
إلاَّ إذا واجَهَتْ جيشاً له وَجَما
تخالُ نيرانَها من بُعْدِ مَنْظَرِها
بعضَ النّجوم إذا ما ليلُها عَتَما
لمّا أطافَ بها ضاقتْ صدورهُمُ
حتى أقرّوا له بالحُكم فاحْتَكَما
فذلّ ساكنُها من بعد عِزّتِه
يُعْطِي الجِزْيَ عارفاً بالذلّ مُهْتَضَما
وبعدَ ذلك أياماً نُعَدِّدها
وقبلها ما كَشَفْتَ الكرب والظُّلما

(٣٧) باذغيس : ناحية تشمل قرى من أعمال هراة ومرو الرّوذ ، قصبتها : بَوْن وباميين ، بلدتان متقاربتان ، وهي في بلاد خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١/٢) وتقويم البلدان (٤٥٤ ـ ٤٥٥) .

أعطاك ذاك وليُّ الرزقِ يَقْسِمُهُ
بين الخلائقِ والمحرومُ مَنْ حُرِما
يداكَ إحداهُمَا تُسقي العدوَّ بها
سُمّاً وأُخرى نداها لم يزَلْ دِيَما
فهل كَسَيْبِ يزيدٍ أو كنائلِه
إلاّ الفُراتُ وإلاّ النيلُ حين طَمَا
ليسا بأجوَدَ منه حينَ مَدِّهما
إذ يعْلوَانِ حداب الأرض والأكما (٣٨)

وقال :

ثنائي على حيٍّ العَتيكِ بأنَّها
كِرامٌ مَقَارِيها (٣٩)، كِرام نصابُها (٤٠)
إذا عقدوا للجارِ حَلَّ بِنَجْوَةٍ
عزيزٌ مراقيها ، منيعٌ هِضَابُها
نفى نَيْزَكاً عن باذَغِيسَ ونيزكٌ
بمنزلةٍ أعيا الملوكَ اغتِصابُها
مُحَلِّقَةٍ دونَ السَّماء كأنَّها
غَمَامةُ صَيفٍ زَلَّ عنها سَحَابُها
ولا يبلغ الأَرْوَى شماريخَها العلا
ولا الطَّيرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها

(٣٨) الطبري (٦/٣٨٦) وانظر ابن الأثير (٤/٤٩٨ ــ ٤٩٩) .
(٣٩) المقار : جمع مَقَر ، وهو موضع الاستقرار ، ومحلٌ يتخذه الانسان مكاناً لاقامته ، ويريد بهم الذين استقروا في المدن والحواضر .
(٤٠) نصاب : الأصل والمرجع ، ويريد به رئيس القبيلة وشيخها .

وما خُوِّفَتْ بالذِّئبِ ولدانُ أهلها
ولا نَبَحتْ إلاّ النّجومَ كلابُها
تَمَنَّيْتُ أن ألقى العتيكَ ذوي النُّهى
مُسَلَّطة تُحمى بملكٍ ركابُها
كما يَتَمَنّى صاحبُ الحرثِ أعطَشَتْ
مزارعَهُ غَيْثاً غزيراً رَبابُها
فأُسْقِيَ بَعْدَ اليأس حتى تحيَّرَتْ
جَدَاولها رِيّاً وعبَّ عبابُها
لقد جمع الله النوى وتَشَعَّبَتْ
شعوبٌ من الآفاقِ شتى مآبها (٤١)

وقد حرصت على نقل هذا الشِّعر الجميل ، لأنه يصف وصفاً دقيقاً مناعة قلعة نيزك ، ويصف بشكل غير مباشر مبلغ ما تحمّله المسلمون من عناء شديد في فتحها .

وليس نيزك اسم شخص من الأشخاص ، بل لقب ملك باذغيس ، أحد الملوك المحلِّيين في خُراسان .

وقد نجح يزيد في مباغتة نيزك ، إذ استطاع تطويق القلعة ونيزك بعيد عنها ، مما أجبر نيزك على الصلح .

ومن الواضح أنّ هذه القلعة الحصينة ، كانت جيباً من جيوب المقاومة المعادية للمسلمين . فكان فتحها إيذاناً بالسيطرة الكاملة على منطقة باذغيس بأكملها .

ولما فتح يزيد القلعة ، كتب إلى الحجّاج بالفتح ، وكان يكتب له يحيى

(٤١) الطبري (٦/٣٨٧) وابن الأثير (٤/٤٩٩) .

ابن يَعْمر العَدْوانِيّ حليف هذَيْل (٤٢): « إنّا لحقنا العَدُوّ ، فمنحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفةً ، وأسرنا طائفةً ، ولحقت طائفة برؤوس الجبال ، وعَراعر (٤٣) الأودية ، وأهضام (٤٤) الغِيطان ، وأثناء الأنهار » ، فقال الحجّاج : « مَنْ يكتب ليزيد ؟ » فقيل له يحيى بنُ يَعْمرَ . وكتب الحجّاج إلى يزيد فحمله على البريد ، فقدم عليه أفصح الناس .

وقال له : « أين وُلدت ؟ » قال : « بالأهواز » فقال : « فهذه الفَصاحة ؟» ، فقال : « حفظتُ كلام أبي وكان فصيحا » . قال : « هل يلحن عَنْبَسة ابن سعيد ؟ » ، قال : « نَعم كثيراً » ، قال : « فَفُلان ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فأخبرني عنّي أألحَن ؟ » ، قال : « نعم ، تلحَنُ لحْناً خَفِيّاً ، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً ، وتجعَل أنْ في موضع إنْ ، وإنْ في موضع أنْ » ، قال : « قد أجّلتُك ثلاثاً ، فإنْ أجدْك بعد ثلاث بأرض العراق قتلْتك » ، فرجع إلى خُراسان (٤٥) .

وهكذا جنى على الكاتب الفصيح علمُه ، فقد كان عالماً أكثر مما ينبغي كما يقول المثل ، فلم يحتمله الحجّاج الذي كان لايحتمل أحداً كائناً مَن كان أفضل منه في أي شيءٍ من الأشياء .

والحجّاج ليس وحده يُعاني من هذه النقيصة على كل حال !

د . والذي يُؤخذ على يزيد أنه لم يَعْرِض لموسى بن عبد الله بن خازِم بسوء (٤٦) ، وهو الذي كان أحد الخارجين على الدولة في (تِرْمِذ) فاتخذها

---

(٤٢) كان بنو هذيل معروفين بالفصاحة ، وكانوا حجّة في الفصاحة والبلاغة والبيان ، وشعراؤهم مشهورون .

(٤٣) عراعر : جمع عرْعرَة ، وعرعرة كل شيء : أعلاه ، يقال : عرْعرَة الجبل .

(٤٤) أهضام : جمع الهِضْم : المطمئن من الأرض ، وبطن الوادي .

(٤٥) الطبري (٦/٣٨٧ ــ ٣٨٨) وابن الأثير (٤/٤٩٩) .

(٤٦) الطبري (٦/٤٠٣) وابن الأثير (٤/٥٠٨) .

مقراً له في بلاد ماوراء النهر ، وهو الذي قاتل مع ابيه عبدالله بن خازم سنتين ثم خرج يسير في بلاد خراسان حتى أتى ملك ترمذ فغلبه على مدينته وأخرجه منها واقام في حصنه خمسَ عشرة سنة ، وصار ماوراء النهر له لا ينافسه فيه أحد (٤٧) ، يسيطر على معظم أجزائه ، ويجبي الضرائب ويجمع الأموال ويأوي الخارجين على الدولة ويستعين بهم في حرب العرب وغير العرب .

وقد كانت بلاد ما وراء النهر ، هي المجال الحيويّ في الفتح واستعادة الفتح من جديد بالنسبة لأمير خُراسان ، فما كان ينبغي ليزيد السكوت عن موسى وسيطرته على تلك البلاد .

ولكن لم يكن يزيد وحده السّاكت عن موسى ، فقد سكت أبوه المهلّب من قبله على موسى أيضاً ، فحين قدم المهلّب أميراً على خُراسان ، لم يَعْرض لابن خازم ، وقال لبنيه : « إيّاكم وموسى ، فانّكم لا تزالون ولاة هذا الثّغر ما أقام هذا الثّطّ (٤٨) بمكانه ، فان قُتِل كان أوّل طالع عليكم أميراً على خُراسان رجل من قَيْس » ، فمات المهلّب ولم يوجّه اليه أحدا (٤٩) .

فلما عُزل يزيد وولى المفَضّل ، سيرَ إليه الجيوش وقضى على موسى (٥٠) وكان سكوت يزيد عنه خطأً من أخطائه مهما تكن أسباب سكوته ، وكان قضاء المفضل على موسى حسنة من حسنات المفضّل بلامِراء ، فمهّد لفتح قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلي الذي خلفَ المفضّل ، لأنه قاتل أهل البلاد المفتوحة ولم يقاتلهم ويقاتل معهم موسى بن عبد الله بن خازِم وغيره من الخارجين على الدولة ، فكان فتح قتيبة بحق حسنة من حسنات المفضّل ، جرت على يدى قتيبة .

(٤٧) الطبري (٦/٤٠٩) .
(٤٨) الثط : خفيف شعر اللّحية والحاجبين ، والذي ثقل بطنه وبطؤت حركته .
(٤٩) الطبري (٦/٤٠٣) . (٥٠) ابن الأثير (٤/٥١١) .

٢ ـ المرحلة الثانية

أ . في سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) عزل الحجّاج بن يوسُف، عن خُراسان يزيدَ بن المهلّب وولّى أخاه المفُضَّل مكانه (٥١) .

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) ولّى سليمان بن عبد الملك خُراسان يزيد بن المهلّب (٥٢) .

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) غزا يزيد (جُرْجَان) (٥٣) و(طَبَرِسْتَان) (٥٤) ، وكان قد قَدِمَ خُراسان ، فأقام ثلاثة أشهر أو اربعةً ، فأعدَّ العُدَّة اللازمة للفتح ، وكان أهم ما حققه في الجانب الداخلي هو القضاء على مصادر الشَّغَب . وعلى رأسها وَكِيْع بن حسّان ابن قيس بن أبي سُود بن كَلْب بن عَوْف بن مالِك بن غُدانة بن يَرْبوع والي خُراسان وقاتل قتيبة بن مُسْلِم الباهليّ . ووَكِيْع من بني تَميم ، وكان معروفاً بالشّجاعة والاقدام ، وله مواقف بطولية في أيام الفتح ، ولكنه كان أعرابياً ، وقد توّلى خُراسان بعد مقتل قتيبة تسعة أشهر أو عشرة ، ثمّ عُزل بيزيد بن المهلّب، فَحَبَس وَكِيع واخذ أصحابه (٥٥) ، وبذلك استطاع يزيد السيطرة على (مَرْو) قاعدة الفتح المتقدمة .

---

(٥١) الطبري (٣٩٣/٦) وابن الأثير (٥٠٢/٤) وانظر البدء والتاريخ (٧٣/٦).

(٥٢) الطبري (٥٢٣/٦) وابن الأثير (٢٣/٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣٢٤/١) والمعارف (٤١٦) .

(٥٣) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين خراسان وطبرستان ، فبعض يعدها من خراسان ، وبعض يعدها من طبرستان ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٢٥) ومعجم البلدان (٧٥/٣ ـ ٧٩) وتقويم البلدان (٤٣٨ ـ ٤٣٩) .

(٥٤) طبرستان : بلاد واسعة تضم بلداناً كثيرة منها : جرجان وآمُل واستراباذ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٢٤ ـ ١٢٥) ومعجم البلدان (١٧/٦ ـ ٢١) وتقويم البلدان (٤٣٢ ـ ٤٣٩) .

(٥٥) انظر التفاصيل في الطبري (٥٢٧/٦ ـ ٥٢٨) .

أما ما حقّقه يزيد في الجانب العسكري ، فهو حشد قوات ضاربة قادرة على الفتح ، فحشد في جيشه أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الشّام ووجوه أهل خُراسان والرّيّ ، في مئة ألف مقاتل سوى الموالى والمماليك والمتطوعين (٥٦)

ولكي يضمن قاعدته المتقدّمة وهي خُراسان ، خلّف ابنه مَخْلَد عليها (٥٧) ؛ وكان مخلّد حاد الذكاء ألمعياً شجاعاً على الرغم من صغر سنّه . كما سيرد ذلك وشيكا .

ولما أكمل يزيد الجانبين : الأمني في الداخل ، وحشد جيشه حشداً متكاملاً ، انطلق إلى هدفه في الفتح .

وسبب غزو جُرْجان وطَبَرِستان المباشر واهتمام يزيد بهما ، أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك حين كان سليمان ولياً للعهد ، كان سليمان كلّما فتح قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهليّ فتحاً يقول ليزيد : « ألا ترى إلى ما يفتح الله على قُتَيْبَة ؟ » ، فيقول يزيد : « ما فَعَلَتْ جُرْجان التي قطعت الطريق . وأفسدت (قُومِس) (٥٨) و (نَيْسَابور) (٥٩)؟ هذه الفتوح ليست بشيءٍ . الشان هي جُرْجان ! » .

أما سبب الغزو غير المباشر . فهو استعادة فتح هذه المناطق الحيوية ،

---

(٥٦) الطبري (٥٣٢/٦) .

(٥٧) الطبري (٥٣٢/٦) .

(٥٨) قومس : كورة كبيرة واسعة . تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها ، وقصبتها المشهورة (دامغان) . وهي بين الريّ ونيسابور ، ومن مدنها المشهورة : بسطام وبيار ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٥/٧ ـ ١٨٦) وتقويم البلدان (٤٣٢) .

(٥٩) نيسابور : مدينة عظيمة من مدن خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٦/٨ ـ ٣٥٩) وتقويم البلدان (٤٥٠ ـ ٤٥١) والمسالك والممالك (١٤٥ ـ ١٤٧) .

وبسط سيطرة الدولة عليها ، أسوة ببقية الأمصار المفتوحة وبخاصة في خُراسان وبلاد ما وراء النهر .

فلما أصبح سليمان بن عبد الملك خليفةً وولي يزيد خُراسان ، لم يكن ليزيد همة غير جُرْجان .

ولم تكن جُرْجان يومئذ مدينة ، إنما هي جبال ومخارِم (٦٠) وأبواب ، يقوم الرجل على باب منها ، فلا يستطيع أحدٌ أن يتغلّب عليه .

وابتدأ يزيد بحصار (قُهِسْتان) (٦١) ، وكان أهلها طائفة من الترك . وأقام يزيد بجيشه عليها ، وكان أهلها يخرجون ويقاتِلون ، فيهزمهم المسلمون في كلٍّ مرّة ، فاذا هُزموا دَخلوا الحصن .

وخرج الترك ذات يوم ، وخرج إليهم المسلمون ، فاقتتلوا قتالاً شديداً . وحمل محمد بن أبي سَبْرَة على أحد الترك الذي صدّ الناسَ عنه لقتاله بشجاعة فائقة ، فاختلفا ضَرْبَتَيْن ، فثبتَ سيف التركي في بيضة (٦٢) ابن أبي سَبْرَة ، وضربه ابنُ أبي سبرة فقتله ، ورجع وسيفه يقطر دماً وسيف التركي في بيضته ، فنظر الناس إلى أحسن منظر رأوه .

وخرج يزيد بعد ذلك يوماً ينظر مكاناً يدخل منه عليهم ، وكان في أربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم ، فلم يشعروا حتى هجم عليهم الترك في نحو أربعة آلاف ، فقاتلوهم ساعة ، وقاتل يزيد قتالاً شديداً ، فسلم

---

(٦٠) مخارم : جمع مَخْرِم . والمخرم : الطريق في الجبل أو الرّمل . ومخرم الأكمة : منقطعها . ومخرم الجبل : انفه .

(٦١) قهستان : وردت في معجم البلدان (٧/١٨٧) : قُوهِستان ، وهو تعريب : كوهستان ، ومعناه : موضع الجبال ، لأن كوه هو الجبل بالفارسية ، وهي كورة على مفازة فارس من خراسان ، وتشتمل على عدّة مدن ، وهي قائن وتون وجنابذ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٨٧ ـ ١٨٨) وتقويم البلدان (٤٤٤ و ٤٥٢) .

(٦٢) البيضة : الخوذة الفولاذية التي يُغَطّى بها الرأس في الحرب .

يزيد ورجاله وانصرفوا ، وكانوا قد عطشوا ، فانتهوا إلى الماء وشربوا ، ورجع عنهم العدو .

ثمّ إنّ يزيد ألح في القتال ، وقطع عنهم المواد ، حتى ضعفوا وعجزوا ، فأرسل صُول . دهقان قُهِستان إلى يزيد . يطلب منه أن يصالحه ويؤمنه على نفسه وأهله وماله ، ليدفع إليه المدينة وما فيها ، فصالحه ووَفى له . ودخل يزيد المدينة . فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي ما لا يُحْصى ، وقتل كثيراً من الترك ، وكتب إلى سليمان بن عبد الملك بالفتح .

ب . وأتى يزيد جُرْجان . وكان أهل جُرجان قد صالحهم سعيد بن العاص . وكانوا يجبون أحياناً مئة ألف وأحياناً مِئَتَيْ ألف وأحياناً ثلاثمائة ألف ، وربما أعطوا ذلك وربما منعوه . ثمّ امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خَراجا . ولم يأتِ جُرجانَ بعد سعيد بن العاص أحد ، ومنعوا ذلك الطريق ، فلم يكن يسلك طريق خُراسان أحد إلاّ على (فارس) و(كَرْمان) . وأوّل مَنْ صيّر الطريق من (قُومَس) قتيبة بن مسلم حين وليَ خُراسان .

وبقي أمر جُرجان كذلك بعيداً عن سيطرة الدولة اسلامية ، حتى وليَ يزيد وأتاهم ، فاستقبلوه بالصلح وزادوه وهابوه ، فأجابهم إلى الصّلح . ولما صالح يزيد (صُوْل) (٦٣) وفتح (البُحَيْرَة) (٦٤) و(دِهِسْتان)(٦٥)

(٦٣) صول : لفظة تركية ، وهو اختصار (صَوْل قول اغاسي) اي رئيس الجناح الأيسر ، وهو من ضباط الصف ، ورتبته أعلى رتبة بين ضباط الصف ، بين الملازم ورئيس العرفاء ، هكذا معناه في الجيش العثماني ، ويبدو انه كان برتبة ضابط في الأيام القديمة .

(٦٤) البحيرة : جزيرة في البحر ، بينها وبين قهستان خمسة فراسخ ، وهي من جرجان مما يلي خوارزم ، انظر ابن الأثير (٥/٣٢) .

(٦٥) دهستان : مدينة مشهورة عند مازندران ، ومعناها بالفارسية : موضع القرى ، وهي بين جرجان وخوارزم ، وهي آخر حدود طبرستان ، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٣٨ ـ ٤٣٩) .

صالح أهل جرجان على سعيد بن العاص (٦٦) .

جـ . ولما فتح يزيد جُرْجان وقهستان ، طمع في فتح (طَبَرِسْتَان) ، فعزم على أن يسير إليها ، ويفتحها .

واستعمل محمد بن المُعَمرَّ اليَشْكُري على قُهِسْتان وخلّف معه اربعة آلاف . ثمّ أقبل إلى أداني جُرجان مما يلي طبرستان ، فاستعمل على (ايذوسا) (٦٧) راشد بن عمرو (٦٨) وجعله في أربعة آلاف ، وكانت هاتان الحاميتان لحماية خطوط مواصلات يزيد .

ودخل يزيدطبرستان ، فأرسل إليه ((الأصبهبذ) صاحبها (ملكطبرستان) يسأله الصّلح وأن يخرج من طبرستان ، فأبى يزيد ورجا أن يفتتحها .

ووجّه يزيد أخاه أبا عُيَيْنَة من وجه ، وابنه خالد بن يزيد من وجه ، وأبا الجَهْم الكلبيّ من وجه ، وقال : « إذا اجتمعتم فأبو عُيينة على الناس » ، فسار أبو عُيَيْنَة ، وأقام يزيد مُعَسْكِرا .

واستنجد الاصبهبذ بأهل (جِيْلان) (٦٨ أ) و(الدَّيْلَم) (٦٩)

---

(٦٦) انظر التفاصيل في الطبري (٥٣٢/٦ ـ ٥٣٩) و (٢٧١/٤) وابن الأثير (٢٩/٤ ـ ٣٠) و (١١١/٣) ، وانظر ابن خلدون (١٠١٩/٢) والبدء والتاريخ (٤٣/٦) والعبر (١١٦/١) وتاريخ خليفة بن خياط (٣١٩/١) ووفيات الأعيان (٣٤١/٥) .

(٦٧) ابن الأثير (٣٠/٥) ، وفي الطبري (٥٣٩/٦) : اندرِسْتان .

(٦٨) في الطبري (٥٣٩/٦) ، اسد بن عمرو او عبدالله بن الربعة .

(٦٨أ) جيلان : اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان ، يحيط بها من الغرب شيىء من أذربيجان وبعض بلاد الريّ ، ويحيط بها من جهة الجنوب قزوين وشيء من أذربيجان وبعض بلاد الرى ، ويحيط بها من جهة الشرق بقية الرى وطبرستان ، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر ، وجيلان غربي طبرستان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٤/٣) وتقويم البلدان (٤٢٦ ـ ٤٢٧) .

(٦٩) الديلم : اسم بلاد واسعة ، يحيط بها من الغرب شيء من أذربيجان وبعض بلاد الريّ ، ويحيط بها من جهة الجنوب قزويا وشيء من ←

فأتوه ، فالتقوا في سفح أحد جبال طبرستان ، فانهزم المشركون في الجبل . وطارد المسلمون المنهزمين حتى انتهوا إلى فم الشِّعْب (شِعْب الجبل) ، فدخله المسلمون . وصعد المشركون الجبل ، وأتبعهم المسلمون يرومون الصعود ، فرماهم العدوّ بالنُّشّاب والحجارة ، فانهزم أبو عُيَيْنَة والمسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون في الجبل ، حتى انتهوا إلى عسكر يزيد .

وكفّ العدو عن مطاردة المسلمين . وخافهم الأصبهبذ ، ولكنه كتب إلى المَرْزُبان (٧٠) المُقَدَّم في أهل جُرجان يسأله أن يُبَيِّتَ مَنْ عنده من المسلمين . وأن يقطعوا عن يزيد المواد التموينيّة والطريق فيما بينه وبين بلاد المسلمين ، ويَعِدُه أن يكافئه على ذلك . وقال في رسالته : « إنا قد قتلنا يزيد ومَن معه . فأقتل مَنْ عندك من العرب » . وثار أهل جُرجان بالمسلمين ، فقتلوهم أجمعين وهم غارّون في بيوتهم ليلاً ، وقُتل عبد الله بن المُعَمَّر بجميع مَنْ معه . فلم ينج منهم أحد ، وكتب المرزبان بأخذ المضايق والطـرق .

وبلغ ذلك يزيدَ وأصحابه . فعظم عليهم وهالهم .

وفزع يزيد إلى حَيَّان النَّبطي أحد الرجال العقلاء من العجم الذين أسلموا . وقال له : « لايمنعك ما كان مني إليك ، من نصيحة المسلمين ، وقد جاءنا عن جُرْجان ما جاءنا . فاعمل في الصُّلح » .

وقصد حيّان الأصبهبذ . فقال : « أنا رجل منكم ؛ وإن كان الدِّين فرّق بيني وبينكم . فأنا لكم ناصح ، فأنت أحبّ إليّ من يزيد ، وقد بعث يستمدّ . وأمداده منه قريبة . وإنما أصابوا منه طرَفاً ، ولست آمَنُ أن

←« أذربيجان وبعض بلاد الريّ . ويحيط بها من جهة الشرق بقيّة الريّ وطبرستان ، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٢٦ ـ ٤٢٧) والمسالك والممالك (١٢١ ـ ١٢٦) .

(٧٠) المرزبان : الرئيس من الفرس . جمعها : مرازِبَة .

يأتيك مالا تقوم له ، فأرِحْ نفسك منه وصالحه ، فأنك إن صالحته صيرّ حدّه على أهل جُرجان بغدرهم وقتْلهم أصحابه » .

ويبدو أنّ الأصبهبذ كان خائفاً من المسلمين ، لأن اندحار أبي عُيَيْنَة ابن المهلّب قضى على جزء من جيش المسلمين حسب ، كما أنّ إبادة المسلمين في جُرْجَان قضى على جزء آخر من جيش المسلمين أيضاً ولا تزال القوّة الضّاربة الأصلية من جيش المسلمين بقيادة قائدها العام يزيد سالمة وجاهزة للقتال ؛ كما أنـه قدّر أنّ المسلمين لن يسكتوا على ماالحق بجيش يزيد من خسائر ، وهم بدون شك سينتقمون اليوم أو غدا ، لذلك آثر السّلامة ، وصالح المسلمين على سبعمائة آلف . وقيل : خمسمائة ألف درهم ، او أربعمائة وِقْـر (٧١) زعفران أو قيمته من العَيْن (٧٢) ، وأربعمائة رجل ، على كل رجلٍ منهم بُرْنُس (٧٣) وطَيْلَسَان (٧٤) ، ومع كل رجل منهم جام من فضّة وخرقة حرير وكسوة .

ورجع حيّان إلى يزيد ، فقال : « ابعث مَن يَحْمِل صُلحهم » ، فقال : « من عندهم أو من عندنا ؟ ! » قال : « من عندهم » ، وكان يزيد قد طابت نفسه ان يعطيهم ماسألوا ويرجع الى جرجان ، فارسل يزيد من يقبض ما صالحهم عليه حيان ، فلما قبض ما صالحهم عليه انصرف الى جرجان (٧٥) .

وكان يزيد قد غرّم حيانا مئتي الف درهم ، فخاف ألا يناصحه ولكن ايمان حيّان كان أقوى مـن حقـده ، فنصح المسلمين لأنه منهم ، (فنَسي نفسه من أجلهم ، ولو كان الأمر يخصّ يزيـد بالذّات ، لاختلف الامـر كثيرا .

(٧١) الوقر : الحمل الثقيل .
(٧٢) العين : ماضرب نقداً من الدنانير ، يقال : اشتريت بالعين لا بالدين .
(٧٣) برنس : كل ثوب راسه منه ، ملتزق به . وبرنس : قلَنسوة كبيرة .
(٧٤) الطيلسان : ضربٌ من الأوشحة يلبس على الكتف ، أو يحيط بالبدن ، خالٍ عن التفصيل والخياطة ، والكلمة فارسية معرّبة .
(٧٥) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٣٩ ـ ٥٤١) وابن الأثير (٥/٣٠ـ٣٢) .

د. وقيل : إنّ سبب سير يزيد إلى جُرجَان ، أنّ (الصُّوْل) التركي كان ينزل قُهِستان والبُحيرة ، وكان يُغير على فَيرُوز بن قُول مَرزُبان جُرْجان فيصيب من بلاده ، فخافه فيروز فسار إلى يزيد بخُراسان وقدم عليه ، فسأله يزيد عن سبب قدومه فقال : « خفتُ صُولاً فهربت منه ، وقد أخذ صول جُرجان » . وقال يزيد لفيروز : « هل من حيلة لقتاله ؟ » . قال : « نعم ، شيء واحد إن ظفرتَ به قتلته واستسلم لك » ، قال : « ما هو ؟ » ، قال : « تكتب إلى الأصبهبذ كتاباً تسأله فيه أن يحتال لصول حتى يقيم بجُرجان ، واجعلْ له على ذلك جُعْلاً ، فانه يبعث بكتابك إلى صول ، يتقرّب به إليه ، فيتحوّل عن جُرجان ، فينزل البحيرة ، وإن تحوّل عن جُرجان وحاصرتَهُ ظفرتَ به » .

وكتب يزيد إلى الأصبهبذ بما أشار به عليه فيروز . وضمن له خمسين ألف دينار إن هو حبس صولاً عن البحيرة ليحاصره بجرجان ، فأرسل الأصبهبذ الكتاب إلى صول ، فلما أتاه الكتاب رحل إلى البحيرة ليتحصّن بها .

وبلغ يزيدَ مسيرُه ، فخرج إلى جُرجان ومعه فيروز ، واستعمل على خراسان ابنه مَخْلَداً (٧٦) .وعلى سَمَرْقند وكِشّ ونَسَف وبُخارى ابنه معاوية ، وعلى طَخَارِستان حاتم بن قَبِيْصَة بن المهلّب ، وأقبل حتى أتى جُرجان ، فدخلها ولم يمنعه منها أحد . وسار منها إلى البحيرة ، فحصر صولاً بها فكان يخرج إليه صول فيقاتله ثمّ يرجع . ومكث يزيد ستة أشهر محاصراً صولاً ورجاله ، فأصيب صول ومَنْ معه بالمرض (٧٧) والموت.

(٧٦) مَخْلَد : بفتح الأول ، وسكون الثاني ، وفتح الثالث ، وهذا هو الصواب ، والخطأ في تحريكه بغير ذلك ، كما نجده في بعض المصادر والمراجع ، اذ يضمون الأول ويفتحون الثاني ، فيصبح : مُخَلَّد ، وليس في الأحياء مخلد .

(٧٧) اصيبوا بمرض السُّوَاد : داء يأخذ الانسان والابل والغنم من شرب الماء المِلْح .

وأرسل صول يطلب الصُّلح على نفسه وماله وثلاثمائة من أهله وخاصّته ويسلم إليه البحيرة ، فأجابه يزيد ، فخرج صول بماله وثلاثمائة ممّن أحبّ ، وصار مع يزيد ، فقُتل من رجاله كثير ، ومَنّ يزيد على الآخرين ، فكان صول مثالاً سيئاً للقائد ، لأنّه اشترى نفسه وذويه بموت رجاله .

وقال الجُندّ ليزيد : أعطنا أرزاقنا ، فدعا إدريس بن حنظلة العَمّي وقال : « أحْصِ لنا ما في البحيرة حتى نُعطي الجند » ، فدخلها إدريس ، فلم يقدر على إحصاء ما فيها فقال ليزيد « فيها ما لا استطيع احصاءه ، وهو في ظروف فتحصي الجواليق ونعلم ما فيها ونقول للجند : ادْخلُوا فخذُوا ، فمن أخذ شيئاً عرَفنا ما أخذ من الحنطة والشّعير والأرُز والسمسم والعَسَل » .

وأحصَوا الجَواليق عدداً ، وعلّموا كل جُوالَق ما فيه ، وقالوا للجند : خذوا ، فكان الرجل يخرج وقد أخذ ثياباً أو طعاماً أو ما حَمَل من شيء ، فيكتب على كلٍّ رجلٍ ما أخَذ ، فأخذوا شيئاً كثيرا .

وكان على خزائن يزيد رجل يدعى : شَهْر بن حَوْشَب ، فرفعوا عليه أنه أخذ خريْطة (٧٩) ، فسأله يزيد عنها ، فأتاه بها ، فقال بعضهم :

لقد باعَ شَهْرٌ دينَه بخريطة
فمن يأمَنُ القُرّاء بعدَك ياشَهْرُ !

وقال مُرَّة النَّخَعيّ :

يا ابن المهلّب ما أردتَ إلى امرئٍ
لولاك كان كصالحِ القُرّاء

وإخبار يزيد عن الخريطة التي حجزها شَهْر لنفسه ، دليل على الرقابة الدقيقة على تصرّفات الأشخاص ، والحرص الشديد على أموال الدولة ، والاحصاء

(٧٨) الجواليق : جمع الجُوالَق ، وهي الفرارة ، معرّبة ، وتجمع الجُوالَق : جوالق وجَوالِيق ، وجُوالِقات . والجُوالِق كالجِوالق ، بضم الجيم وكسرها .
(٧٩) الخَريطَة : وعاء من جلدٍ أو نحوه يُشَدّ على ما فيه .

الدقيق للغنائم ، مما يصعب تنفيذه حتى في هذه الأيام .

كما أن تصرّف شهر في حجز الخريطة لنفسه ، كان مدعاة لاستهجان الرأي العام في حينه ، مما يجعل المجاهدين يحرصون أعظم الحرص على الغنائم ، فلا يأخذون منها إلاّ ما يستحقون .

وصدق الله العظيم : (ومَن يَغْلُلْ يَأْتِ بما غَلّ يوم القيامة ، ثم تُوَفّى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ، وهُمْ لا يُظْلَمون) (٨٠) .

وأصاب يزيد تاجاً فيه جواهر ، فقال : « أترون أحداً يزهد في هذا ؟! » ، قالوا : لا ! فدعا محمد بن واسع الأَزدِيَّ ، فقال : « خذ هذا التاج » ، قال : « لا حاجة لي فيه ! » ، قال : « عزمتُ عليك » ، فأخذه .

وأمر يزيد رجلاً ينظر ما يصنع به ، فلقى سائلاً ، فدفعه إليه . وأخذ الرجلُ السائل وأتى يزيد وأخبره ، فأخذ يزيد التاج ، وعوّض السائل مالاً كثيرا (٨١) .

والفرق بين الروايتين هو في الحافز الذي حفز يزيد على غزو جُرْجان ، وقد يكون الحافزان تضافرا على حفز يزيد على المسير إلى جُرجان واستعادة فتحها . وهذا ما أراه في الحافز لهذه الغزوة : رغبة يزيد في استعادة فتح جُرجان تنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه لسليمان بن عبد الملك ، وتشجيعُ فيروز له على استعادة فتحها .

ومهما قيل في هذه المرحلة من جهاد يزيد ، فانّها كانت إخفاقاً كاملاً ، والاخفاق يقع على عاتق القائد حتى ولو لم يكن مسؤولاً عن أسباب هذا الاخفاق . إذ لا يمكن أن نلوم يزيد على هزيمة جيش أبي عُيَيْنَة بعد أن اندفع في مطاردة العدو المنهزم في الجبال على غير هدى وبصيرة في أرض يجهل

(٨٠) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٦١) ، وغلّ فلانٌ غلولاً : خان في المغنم وغيره ، وكان السلف الصالح أبعد ما يكونون عن الغلول .

طبيعتها كلّ الجهل ، فاندفع بالعمق في مطاردته دون مسوّغ . كما لايمكن أن نلوم يزيد على التخلّي عن الحذر والحيطة من حامية ابن المُعَمرَّ في محيط معادٍ في منطقة وعرة بعيدة عن جيش يزيد من جهة وقاعدة المسلمين المتقدّمة في خُراسان من جهة أخرى .

ولكنّ القائد دائماً يصطلي بنار لم يضرمها ولا يرضى باضرامها .

٣ ـ المرحلة الثالثة

أ . لما صالحَ يزيد أصبهبذَ طَبَرِستان ، سار إلى جُرجان ، وعاهد الله لئن ظفر بهم لا يرفع السّيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين (٨٢) .

وأتى يزيد جُرْجان ، فحصر أهلها بحصن (فجاه) (٨٣) الذي جمع المَرْزبان أصحابه فيه ، ويبدو أنه أحد الحصون المنيعة القريبة من مدينة جُرْجان الحالية ، ومَنْ يكون بها لايحتاج إلى عدّة من طعام أو شراب ، ويظهر أنها تقع على مصدرٍ للمياه ، وقد كُدّست فيها الأرزاق والعلف والقضايا الاداريّة الأخرى .

وحصرهم يزيد في القلعة سبعة أشهر ، وهم يخرجون إليه في الأيام ، فيقاتلونه ويرجعون إلى الحصن ، دون أن يستطيع يزيد أن يحسلهم على الاستسلام ، لأن حول الحصنِ غياضاً ولا يَعرِف لهم مَأتىً إلاّ من

---

(٨١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٣٨/٦ ـ ٥٣٩) وابن الأثير (٣٢/٥ ـ ٣٣).

(٨٢) يريد : أن تكبدهم خسائر جسيمة في الأرواح ، فتختلط الدماء الغزيرة بالمياه الجارية على الأرحاء . فتطحن الطحين ويأكل منه ، ليبرّ يمينه .

(٨٣) فجاه : جاء في ابن الأثير (٣٤/٥) كذلك ، أما في الطبري (٥٤٦/٦) فقد جاء اسم هذا الحصن : وجاه ، وحاولت أن اجد ذكره في المصادر الجغرافية العربية القديمة ، فلم افلح .

وجهٍ واحد ، ولأنّ المُرْزبان قائد الحصن قد كدّس ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، ولأنّ المرزبان ورجاله المحصورين في الحصن يعلمون أنّ استسلامهم معناه الموت لغدرهم وإبادتهم المسلمين غدرا .

وطال أمد الحصار كثيراً ، فبينما هم على ذلك ، إذ خرج رجل من عجم خُراسان ينصيّد ، وقيل : رجل من طيّء ، فأبصر وعلاً في الجبل ، فأتبعه يرقى في الجبل على أثر الوعل ، فما شعر الرجل إلاّ وهو يشرف على معسكر أهل جُرجان في حصنهم ، فاكتشف بذلك طريقاً جديدة تؤدي إلى الحصن مباشرة

ورجع الرجل أدراجه ، وجعل يخرق قباءه ويعقد على الشَجر علامات ، حتى عاد إلى معسكر المسلمين بعد أن أشّر الطريق بقطع من قبائه .

وأتى الرجلُ يزيدَ ، فأخبره باكتشافه الجديد ، فضمن له يزيد هبة مالية مجزية إن دلّهم على الحصن ، فانتخب ثلاثمائة رجل استعمل عليهم يزيدُ ابنَه خالد بن يزيد ، وقال له : « إن غُلبتَ على الحياة ، فلا تُغلبنّ على الموت . وإياك أن أراك عندي مهزوما » .

وقال يزيد للرجل : متى تَصِل إليْهم ؟ » ، قال : غداً عند العَصْر فيما بين الصّلاتين » ، فقال : « امضوا على بركة الله ، فاني سأجْهد على مُنَاهَضَتهم غداً عند صلاة الظهر .

وسارت جماعة المغاوير بقيادة خالد بن يزيد ، فلمّا كان الغد وقت الظُّهر . أحرق يزيد كلّ حطبٍ كان عندهم ، فصار مثل الجبال من النيران .

ونظر العدو إلى النيران ، فهالهم ذلك . فخرجوا إلى المسلمين .

وتقدم إليهم يزيد ، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة ، والتحم الجانبان التحاماً قريباً . فهجم أصحاب يزيد الذين ساروا في الطريق الجبلي على العدو قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه ، ويزيد يقاتلهم من هذا الوجه ، فما

شعروا إلاّ بالتكبير من ورائهم ، فانسحبوا جميعاً إلى حصنهم وقد أثرّت المباغتة في معنوياتهم تأثيراً سيئاً .

وطاردهم المسلمون مطاردة عنيفة ، فاستسلموا دون قيد أو شرط وسبى يزيد ذرارى العدو الغادر ، وقتل مقاتليهم ، وأجرى الماء على دم القتلى وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ويبرّ بيمينه ، فطحن وخبز وأكل .

وبنى يزيد مدينة جُرْجان في مكانها الحاليّ ، ولم تكن قبل ذلك بُنيت مدينة ، ثم رجع إلى خُراسان (٨٤) .

ب . وقيل : إنّ يزيدَ دعا جَهْم بن زَحْر ، فبعث معه أربعمائة ، حتى أخذوا في المكان الذي دُلّوا عليه ، وقد أمرهم يزيد فقال : « إذا وَصَلْتُم إلى المدينة فانتظروا ، حتى إذا كان في السَّحَر فكبّروا ، ثم انطلقها نحو باب المدينة ، فانّكم تجدوني وقد نهضت بجميع الناس إلى بابها » ، فلما دخل ابن زَحْر المدينة أمْهَل ، حتى إذا كانت السّاعة التي أمره يزيد أن ينهض فيها ، مشى بأصحابه ، فأخذ لايستقبل أحداً من أحراسهم إلاّ قتله . وكبّر ، ففزع أهل المدينة فزعاً لم يَدخُلهم مثلهُ قطّ فيما مضى ، فلم يَرعهم إلاّ والمسلمون معهم في مدينتهم يكبّرون ، فَدُهشوا فألقى الله في قلوبهم الرُّعب ، وأقبلوا لايَدْرون أين يتوجّهون !

غيرَ أنّ عِصابةً منهم ليسوا بالكثير ، قد أقبلوا نحو جَهْم بن زَحْر ، فقاتلوا ساعة ، فدُقّت يدُ جَهْم ، وصبرَ لهم جَهْم وأصحابُه ، فلم يُلْبِثوهم أن قتلوهم إلاّ قليلا .

وسمع يزيد بن المهلّب التكبيرَ ، فوثب في النّاس إلى الباب ، فوجدوهم قد شَغَلَهم جَهْم بن زَحْر عن الباب ، فلم يجد عليه مَن يمنَعُه ولا يَدْفَع عنه كبير دَفع ، ففتح البابَ ودخلها من ساعته ، فأخرج مَن كان

(٨٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٤١ ـ ٥٤٣) وابن الأثير (٥/٣٤ ـ ٣٥) .

فيها من المُقاتلة و َقتلهم ، وسبى أهلها ، وأصاب مَن كان فيها . (٨٥)

ومن الواضح أنّ الرواية الأولى أقرب للمنطق والعـقل ، وأبعد عن الصدفة والخرافة . واشبه بالخطة العسكرية المتكاملة . التي تعتمد تطويق المحاصَرين ، ومباغتتهم في وقت لايتوقعونه ومكان لايتوقعونه أيضاً . وإجبار المحاصَرين على الخروج من حصنهم لاستطلاع ما وراء إيقاد النيران الضخمة من أحداث ، والهجوم عليهم من الجبهة الأمامية وضربهم من الخلف بالمغاوير من أصحاب يزيد بقيادة ابنه ، مما أدىّ إلى ارتباك العدو واستسلامه .

جـ . وكتب يزيدُ إلى سليمان بن عبد الملك : « أما بعد ! فان اللهَ قد فتـح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً ، وصَنـعَ للمسلمين أحسنَ الصُّنْع ، فلِرَبِّنا الحمدُ على نعِمه وإحسانه ، أظهرَ في خلافة أمير المؤمنين على جُرْجان وطبرِستان ، وقد أعْيا ذلك سابُورَ ذا الأكتاف وكسرى قُباذ وكسرى هُرْمُز ، وأعْيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان ومنْ بعدهما من خلفاء الله ، حتى فتـح الله ذلك لأمير المؤمنين ؟ كرامةً من الله له ، وزيادة في نِعمه عليه . وقد صار عندي من خُمس ما أفاءَ الله على المسلمين بعد أن صار إلى كلٍّ ذي حق حقُـهُ من الفـي والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » .

وقال له كاتبه المُـغيرة بن أبي قُرَّة مولى بني سَدوس : « لا تكتب بتسمية مالٍ ، فإنّك من ذلك بين أمرين : إما استَكْثَره فأمركَ بحَمْله ، وإما سَخَتَ نفسُه لكَ به فسَوّغَـهُ فتَكلّفت الهديَة ، فلا يأتيه من قِـبلِك شيْ إلاّ استقلـه ، فكأنى بك قد استغرَقْت ما سمّيتَ ولم يقع منه موقعاً ، ويبقى المال الذي سمّيت مخلّـداً عندهم عليك في دواوينهم ، فان ولِيَ والٍ بعدَه أخذكَ به ، وإن ولِيَ مَنْ يتحامَلُ عليك لم يَرْضَ منك بأضعافه ،

(٨٥) انظر التفاصيل في الطبري (٥٤٣/٦ ـ ٥٤٤) وابن الأثير (٣٥/٥) .

فلا يُمْضِ كتَابك ، ولكن اكتب بالفتح وسَلْهُ القُدومَ فتُشافِهه بما أحببتَ مُشَافَهَةً ، ولا تُقَصِّر ، فانك إنْ تُقَصِّر عما أحببتَ أحرى من أن تكثِّر » ، فأبى يزيدُ وأمضى .

وقال بعضهم : كان في الكتاب أربعة آلاف ألف (٨٦) .

ولا يخلو كتاب يزيد من مبالغة واضحة ، فما أعْيا فتحُ طَبَرِسْتان وجُرْجان الفاروقَ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فقد فتحها سُوَيْد من مُقَرِّن المُزْنِي (٨٧) سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢) م على عهد عمر ابن الخطّاب (٨٨) ، كما استعاد فتحهما سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر سنة ثلاثين الهجرية على عهد عثمان بن عفّان رضى الله عنه (٨٩) .

ولما وليَ معاوية بن أبي سفيان وَلّى مَصْقَلَة بن هبيَرة الشَّيباني أحد بني ثعلبة بن شيبان طَبَرِستان ، فسار إليها ومعه عشرة آلاف (٩٠) رجل ، فأوغل فيها يسبى ويقتل ، فلما تجاوز المضايق والعِقاب ، أخذها عليه وعلى جيشه العدو عند انصرافه للخروج ، ودَهْدهُوا عليه الحجارة والصخور من الجبال ، فهلك أكثر جيشه وهلك مَصْقَلة ، فضرب الناس به مثلاً ، فقالوا : « لا يكون هذا حتى يَرْجع مَصْقَلة من طَبَرِستان ! » (٩١) . . . . . فكان المسلمون بعد ذلك إذا غزوا هذه البلاد تحفّظوا وتحذّروا من التوغّل فيها (٩٢) .

---

(٨٦) الطبري (٥٤٤/٦ ـ ٥٤٥) وانظر ابن الأثير (٣٥/٥ ـ ٣٦) .
(٨٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح فارس (١٩٥ ـ ٢٠١) .
(٨٨) انظر التفاصيل في الطبري (١٥١/٤ ـ ١٥٣) وابن الأثير (٢٥/٣) .
(٨٩) انظر التفاصيل في الطبري (٢٦٩/٤ ـ ٢٧١) وابن الأثير (١٠٩/٣ ـ ١١١) .
(٩٠) في معجم البلدان (٢٠/٦) : عشرون الفاً .
(٩١) انظر الطبري (٥٣٥/٦ ـ ٥٣٦) .
(٩٢) معجم البلدان (٢٠/٦) .

وكان يكفي يزيد أن ينصّ في كتابه على استعادة فتح جُرْجان وطَبَرِستان، وكفى بذلك له فخرا، وأعاد فتح طريق خُراسان من ناحية (قومِس) بعد أن امتنع أهل طبرسان وقطعوه فلا يسلكه المسلمون إلاّ على خوف شديد منهم، فكان الطريق إلى خُراسان من فارس إلى كَرْمان إلى خُراسان، وأول من صيّر الطريق من قومِس إلى خُراسان قُتَيْبة بن مُسْلِم حين ولي خُراسان (٩٣)، فلما استعاد يزيد فتح طبرستان أصبح طريق قُوْمِس إلى خُراسان سالكاً وأمينا (٩٤).

لقد كانت معاناة يزيد في فتح جُرجان وطبرستان صعبة للغاية، وكان صبره على الحصار لمدة طويلة جميلا جداً، وكان صبره الجميل دليلاً عملياً على أنّ العرب يصبرون على الحصار الطويل خلافاً لما يزعمه المغرضون بأنّ العرب لايصبرون على حصار طويل، على أن يكون القائد قادراً وذا كفاية قياديّة عالية، كما كان عليه يزيد.

لقد كان استعادة فتح جُرجان وطبرستان إنجازاً عظيماً من أهم إنجازات يزيد بن المهلّب قائدا.

وبقدر ما نفع هذا الأنجازُ المسلمين بعامة، بقدر ما أضر بيزيد بخاصة، فقد حوسب حساباً عسيراً على أرباحه المادية في هذه الغزوة كما نصّ عليها كتابه، فندم على مافرّط في ضخامة المال، ولات ساعة مَنْدم.

في ميدان الصّراع الداخلي

١ ـ في حرب الخوارج

كان المهلّب بن أبي صُفْرَة من أبرز القادة الذين حاربوا الخوارج وانتصروا عليهم إن لم يكن أبرزهم على الاطلاق، وكان يزيد وسائر أولاده من ألمع

(٩٣) ابن الأثير (١١١/٣).
(٩٤) الطبري (٥٣٥/٦).

المقاتلين الذين أعانوا أباهم المهلّب على تحمّل أعبائه القتالية ، وعاونوه في ميادين القتال .

وأوّل ماورد ذكر يزيد في حرب الخوارج كان في حوادث سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦ م) ، فقد كانت هناك حرب بين المهلّب والخوارج في (كَرْمان) ، فانتصر فيها المهلّب على الخوارج . وبعث المهلّب إلى الحجاج بن يوسف الثَّقفي مُبَشّراً ، فلما دخل على الحجّاج أخبره عن الجيش وعن الخوارج وذكر حروبهم ، وأخبره عن المهلّب فقال : « المُغيْرَة فارسهم وسيّدهم ، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً ، وجوادهم وسخيّهم قَبِيْصة ، ولا يستحي الشّجاع أن يفرّ من مُدْرِكة ، وعبد الملك سُمٌّ ناقع ، وحبيب موت ذُعاف ، ومحمدّ ليث غاب ، وكفاك بالمفضَّل نجدة » ، فقال الحجاج : « فأيهّم كان أنجد ؟ » ، فقال : « كانوا كالحلْقة المفرغة ، لا يُعرف طرفها » ، فاستحسن الحجّاج قوله ، وكتب إلى المهلّب يشكره ويأمره أن يولي كَرْمان مَنْ يثق به ، ويجعل فيها مَن يحميها ويقدِم إليه ، فاستعمل على كَرْمان يزيد ابنه . (٩٥)

وفي معارك كَرْمان التي انتصر فيها المهلّب على الخوارج انتصاراً مؤزّرا ، أخرج المهلّب بنيه ، كلّ ابنٍ له على كتيبة ، وأخرج النّاس على راياتهم . وجاء موفد الحجاج البَراء بن قَبِيْصَة الذي بعثه إلى المهلّب ليراقب بلاءه وبلاء بنيه في حرب الخوارج ، فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم . وأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال ، فيقتلون أشدّ قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ، ثمّ انصرفوا .

وجاء البَراء بن قَبيصة إلى المهلّب فقال له : « لا والله ، مارأيت كبَنيْكَ فُرساناً قط ، ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط ، ولا رأيتُ مِثْلَ

(٩٥) ابن الأثير (٤/٤٤٠ ـ ٤٤١) .

قوم يُقاتلونك قط أصبرَ ولا أبْأس ، أنت والله المعذور » .

حتى إذا كان عند العصر ، خرج المهلّب إلى الخوارج بالناس وبنيه في كتائبهم ، فقاتلوا كقتالهم في أول مرّة (٩٦) .

وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلّب ، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم ، فقال : « آنَسَ الله الاسلام بتلاحقكم ! أما والله ، لئن لم تكونوا أسباط نُبوّة ، إنكم لأسباط مَلْحَمة » (٩٧) .

لقد خاض يزيد غمار قتال الخوارج بامرة أبيه المهلّب ، وكان له في تلك الحروب أثر حميد، لم يبرز المؤرخون القُدامى كعادتهم في توجيه كل الضوء على القائد، وإغفال غيره من الناس إلاّ نادرا . وعلى الرغم من هذا الاغفال ، فان دور يزيد ظاهر واضح ، يدلّ على أنه كان أبرز إخوته في هذا المجال .

في قتال الهاشميّ

أعلن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ثورته على الحجّاج بن يوسف الثقفي سنة إحدى وثمانين الهجرية (٧٠١ م) ، إذ بايعه الناس على خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق وعلى النّصرة له ، ولم يذكروا عبد الملك ابن مروان .

ولكن رجال الأشعث قالوا : إذا خلعنا الحجّاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبدالملك ، فاجتمعوا إلى ابن الأشعث وأعلنوا خلع عبد الملك وبايعوه(٩٩).

وأقبل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى دخل البصرة ، فبايعه جميع أهلها ؛ قراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجّاج ومَن معه من أهل الشّام . وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بيعة ابن الأشعث ، أن عُمّال

(٩٦) الطبري (٣٠٢/٦) .
(٩٧) وفيات الأعيان (٣٢٦/٥) ، والملحمة : الحرب الشديدة .
(٩٨) الطبري (٣٣٦/٦) وابن الأثير (٤٦٣/٤) .
(٩٩) الطبري (٣٣٨/٦) وابن الأثير (٤٦٤/٤) .

الحجّاج كتبوا إليه : إنّ الخراج قد انكسر ، وإنّ أهل الذمّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار ؛ فكتب إلى عامل البصرة وغيرها : إنّ مَنْ كان له أصل من قرية ، فليُخْرَجْ إليها » ، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية ، فجعلوا يبكون وينادون : يامحمّداه ! يامحمّداه ! ولا يدرون أين يذهبون ، وجعل قرّاء البصرة يبكون لما يرون ، فلما قدم ابن الأشعث عُقَيْبَ ذلك بايعوه على حرْب الحجّاج وخَلْعِ عبد الملك (١٠٠) .

وأقبلت سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠٢ م) ، فاشتد القتال بين الحجّاج وابن الأشعث ، فتخلّى ابن الأشعث عن البصرة وانسحب إلى الكوفة ، فاجتمع مَنْ بقي في البصرة مع عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطّلب الهاشمي ، فقاتل بهم الحجّاج خمس ليالٍ أشدّ قتال رآه الناس ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ، وتبعه طائفة من أهل البصرة (١٠١).

واستمرّت الحرب بين الحجّاج وابن الأشعث سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٣ م) سجالاً ، واخيراً انتصر الحجّاج على ابن الأشعث (١٠٢) ، فغادر ابن الأشعث العراق إلى سِجِسْتان أولاً والى كَرْمان منسحباً من سجستان ، وأخيراً سار ابن الأشعث مع (رُتبيل) إلى بلاده ، فأنزله وأكرمه وعظّمه (١٠٣) .

وكان كثير من أصحاب ابن الأشعث من الرؤوس والقادة الذين لم

---

(١٠٠) الطبري (٣٤١/٦) وابن الأثير (٤٦٥/٤) .

(١٠١) انظر الطبري (٣٤٣/٦) وابن الأثير (٤٦٧/٤) ، وانظر تفاصيل هذه المعارك في هذه السنة في الطبري (٣٤٢/٦ - ٣٥٠) وابن الأثير (٤٦٧/٤ - ٤٧٢) .

(١٠٢) انظر التفاصيل في الطبري (٣٥٧/٦ - ٣٦٨) وابن الأثير (٤٧٨/٤ - ٤٨٣) .

(١٠٣) انظر التفاصيل في الطبري (٣٦٨/٦ - ٣٦٩) وابن الأثير (٤٨٤/٤ - ٤٨٥) .

يقبلوا أمان الحجّاج ونصبوا له العداوة في كل موطن ؛ قد تبعوا ابن الأشعث فبلغوا سِجِسْتان في نحو ستين ألفاً ونزلوا على (زَرَنْج) يحاصرون مَن بها ، وكتبوا إلى ابن الأشعث يستدعونه ، ويُخبرونه أنهم على قصد خُراسان ليقووا بمن بها من عشائرهم . فأتاهم . وكان يصلي بأصحاب ابن الأشعث قبل قدومه عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب ، إلى أن قدم ابن الأشعث . واستولى على مدينة (زَرَنْج) .

فقال : إن بها يزيد بن المهلّب ، وهو رجل شجاع ، ولا يترك لكم سلطانه ، ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا أهل الشّام ، فيجتمع علينا أهل خُراسان وأهل الشام » ، فقالوا : لو دخلنا خُراسان ، لكان مَنْ يتبعنا أكثر ممّن يقاتلنا .

وسار ابن الأشعث إلى (هَراة) ، فهرب من أصحابه عُبَيْد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرَة القُرَشيّ في ألفين ، فقال لهم عبد الرحمن : « إني كنتُ في مأمن وملجأ ، فجاءتني كتبكم : أَنْ أَقْدِمْ ! فانّ أمرنا واحد ، فعلّنا نقاتل عدوّنا ، فأتيتكم فرأيتم أن أمضي إلى خراسان ، وزعمتم أنكم تجتمعون إليّ . وأنكم لاتتفرّقون . وهذا عبيد الله قد صنع ما رأيتُم ، فاصنعوا ما بدا لكم . أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيتُ من عنده » .

وتفرّق منهم طائفة ، وبقي معه طائفة ، وبقي أعظم العسكر مع عبد الرحمن بن عبّاس الهاشميّ . فبايعوه .

وسار عبد الرحمن الهاشميّ إلى (هَراة) ، فلقوا بها الرُّقاد الأَزْدِي ، فقتلوه .

وأرسل يزيد بن المهلّب إلى الهاشميّ : « قد كان لك في البلاد متّسع ومَن هو أهوَن مني شوكة . فارتحلْ إلى بلدٍ ليس لي فيه سلطان ، فاني أكره قتالك . وإن أردتَ مالاً أرسلتُ إليك » .

ولكن الهاشمي أعاد الجواب : « إنّا ما نزلنا لمحاربة ولا لمقام . ولكنّا أردنا أن نُريحَ ثمّ نرحل عنك ، وليست بنا إلى المال حاجة » .

وأقبل الهاشميّ على الجباية ، وبلغ ذلك يزيد ، فقال : « مَنْ أراد أن يربح ثمّ يرتحل ، لم يَجْبِ الخراج ، فلك ما جبيتَ وزيادة ، فاخرج عني ، فاني أكره قتالك ! » .

وأبى الهاشميّ إلاّ القتال ، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه ، فعلم يزيد فقال : « جَلّ الأمر عن العتاب » .

وتقدّم يزيد بجيشه ، فقاتل الهاشميّ ورجاله ، فلم يكن بينهم كثير قتال ، حتى تفرّق أصحاب عبد الرحمن بن عبّاس الهاشميّ عنه ، وصبر وصبرت معه طائفة ، ثم انهزموا .

وأمر يزيد أصحابه بالكفّ عن مطاردة المنهزمين ، وأخذوا ما كان في معسكرهم ، وأسروا منهم أسرى .

ولحق الهاشميّ بالسِّند ، فانصرف يزيد إلى (مَرْو) مقرّه في خُراسان ، وبعث الأسرى إلى الحجّاج عدا مَنْ كان منهم من الأَزْد قبيلة يزيد كعبد الله بن فَضَالة الزّهرانيّ الأزديّ ، وعدا مَنْ كانت له عليه أو على أهله يَدٌ ، كعبد الرحمن بن طلحة بن خلف الخُزاعيّ ، فأطلقهم وأرسل الباقين من الأسرى إلى الحجّاج الذي قتلهم بسيفه بعد أن قتلهم بلسانه تأنيباً وتقريعاً وهم على قيد الحياة (١٠٤) .

ولئن أحسن يزيد في نصح الهاشميّ وإنذاره والصبر على انحرافه ، ولم يقاتله إلاّ مكرهاً وبعد أن تصرّمت محاولاته السلميّة كلّها ولم يبق غير القتال حلاً ، إلاّ أنه أساء في إطلاق سراح أبناء قبيلته وذوي المعروف عليه من الأسرى ، وأرسل الباقين إلى الحجّاج ليلاقوا حتفهم ، وكان ينبغي أن يعفوَ عن جميع الأسرى أو يعاقبهم جميعاً ، لأنّ ذنبهم واحدٌ وجريمتهم واحدة.

(١٠٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٦٩ - ٣٨٠) وابن الأثير (٤/٤٨٤ - ٤٨٧) وابن خلدون (٣/١١٢ - ١١٤) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/٢٨٣) و (١/٢٨٤) ، وهو غير عبدالله بن عامر القائد الفاتح .

وإحسانه بالنسبة للهاشميّ ، يدلّ على تقديره العميق لآل البيت وكراهيته قتالهم ؛ وإساءته في تصرفه بالأسرى ، يدلّ على التزامه بالنزعة القبلية ، وهي دعوة من دعاوى الجاهليّة التي حاربها الاسلام حرباً لا هوادة فيها وحرّمها على المسلمين تحريما .

وقد أثّر إحسانه وإساءته في مصيره أميراً على خراسان ، ولئن سكت المؤرخون عن إحسانه سبباً من أسباب غضب الحجّاج عليه والتشبث بعزله ، فانهم لم يسكتوا عن إساءته سبباً من أسباب غضب الحجاج عليه .

فقد أُتي بعبد الله بن عامر أحد الأسرى لينال عقابه ، فلما قام بين يدي الحجّاج قال : لارأتْ عيناك الجنّة إن أقلْتَ ابنَ المهلّب بما صنع » ، قال : « وما صنع ؟ » . قال :

« لأنه كاسَ في إطلاق أسْرَتِه
وقادَ نحوكَ في أغلالها مُضَرا
وَقَى بقومِكَ ورْدَ الموتِ أسْرَتَه
وكان قومُكَ أدنى عنده خَطَرا »

فأطرق الحجّاج مَلِيّاً ووَقَرتْ في قلبه ، وقال : « ما أنتَ وذاك ؟ ! اضرِبْ عنقَه . فضُربت عنقُه ، ولم تزل في نفس الحجّاج حتى عزَلَ يزيد عن خُراسان وحبسه (١٠٥) .

بقي عليّ أن أذكر بأن ابن الأشعث هاب يزيد . فلم يحاول جدّياً أن يجدّد ثورته في خُراسان بعد أن انهارت في العراق . مما يدلّ على نجاح يزيد والياً نجاحاً جعل خصوم الدولة بوجوده يحسبون لها ألف حساب

(١٠٥) الطبري (٦/٣٨٠) وابن الأثير (٤/٤٨٨) .

٣ ـ في رحلة الموت

أ ـ الانفلاق :

في سنة مئة الهجرية (٧١٧ م) ، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عَدِيّ بن أَرْطَاة والي البصرة لعمر ، يامره بأنفاذ يزيد بن المهلّب موثقاً . وكان عمر قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه ، فاستخلف ابنه مَخْلَداً وقدم من (خُراسان) ونزل (واسِطاً) (١٠٦) ثمّ ركب السُّفُن يريد البصرةَ ، فبعث عَدِي بن أَرْطَاة موسى بن الوجيه الحِمْيَرِيّ ، فلحقه في نهر (مَعْقِل) (١٠٧) عند الجسر ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق .

وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أُحبّ مثلَهم » ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : « إنّه مُراءٍ » فلما وليَ عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء وأنّ باطنه خير من ظاهره .

ودعا عمرُ يزيدَ ، فسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : « كنتُ من سليمان بالمكان الذي قد رأيتَ ، وإنما كتبتُ

---

(١٠٦) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجّاج بن يوسف الثّقفِيّ ، وسمّيت : واسطاً ، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٨/٨ ـ ٣٨٧) ، وقد أُطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة (الكوت) على نهر دجلة .

(١٠٧) نهر معقل : منسوب الى مَعْقِل بن يَسَار المزَنِيّ ، من أصحاب النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم ، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٤٥/٨ ـ ٣٤٦) ، وفيه : انّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، امر ابا موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن يحفر نهراً بالبصرة ، وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني ، فنسب اليه .

ولا يزال النهر موجوداً في البصرة حتى اليوم ، وعليه ضاحية المعقل احدى ضواحي البصرة ، تقع شمالي البصرة وبالقرب منها ، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون في الشتاء بخاصة ، وفيها مناظر خلابة جداً ، وجوّها معتدل شتاءً .

إلى سليمان لأُسمعَ الناس به ، وقد علمتُ أن سليمان لم يكن ليأخذني به ! » ، فقال عمر : « لا أجدُ في أمرك إلاّ حبسك ، فاتّقِ الله وأدِّ ما قِبلَك فانها حقوق المسلمين ولا يَسَعُني تركُها » .

وحبس عمرُ بن عبد العزيز يزيدَ في حصن (حَلَب) ، وبعث إلى الجراح ابن عبد الله الحَكَمِيّ فسرّحه إلى خُراسان أميراً عليها .

وأقبل مَخْلَد بن يزيد من خُراسان يعطي الناسَ ، ففرّقَ أموالاً عظيمة ، ثمّ قَدِم على عمر ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ! إنّ الله صنع لهذه الأُمة بولايتك ، وقد ابتُلينا بك ، فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك عَلامَ تحبِسُ هذا الشّيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه ، فصالحْني على ما تَسْأل » (١٠٨) . وقيل : إنّ مَخْلَداً قال لعمر : « قد وسِعَ الناسَ عفوُك ، فما بالك حبست هذا الشيخ ؟ فان تكن عليه بيّنة عادلة فاحكم عليه ، وإلاّ فيمينه أو فصالحه على ضياعه » ، فلما سمع يزيد وهو في سجنه بقول ابنه لعمر : « وإلاّ فيمينه » . قال : أما اليمين ، فلا تتحدّث العرب أنّ ابن المهلّب صبر عليها . ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطاب ! » (١٠٩).

وقال مَخْلَد لعمر رضي الله عنه : « يا أمير المؤمنين ! إن كانت له بيّنة فخُذْ بها . وإلاّ فصدّق مقالة يزيد واستحلفه ، فان لم يفعل فصالحه » ، فقال عمر : « ما آخذه إلاّ بجميع المال » .

وخرجَ مَخْلَد من عند عمر . فقال عمر : « هذا خير من أبيه » ،

(١٠٨) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٦ ــ ٥٥٧) وابن الأثير (٥/٤٨ ــ ٤٩) . وانظر البدء والتاريخ (٦/٤٦ ــ ٤٧) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٢٥) و (١/٣٢٨ وابن خلدون (٣/١٦٢ ــ ١٦٦) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٢ ــ ٣٢٣) و (٥/٣٤٣ ــ ٣٤٤) .

(١٠٩) وفيات الأعيان (٥/٣٢٨ ــ ٣٢٩) .

فلم يلبث مَخْلَد إلاّ مات وهو ابن سبع وعشرين سنة ، فقال عمر : « لو أراد الله بهذا الشيخ خيراً يريد يزيد بن المهلّب – لأبقى له هذا الفتى » ، ويقال : إنّ مَخْلَد بن يزيد أصابه الطّاعون ، فمات . وصلىّ عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ثم قال : « اليوم مات فتى العرب » ، وأنشد متمثلاً :

على مِثْل عَمْرو تذهب النَّفس حسرةً
وتَضْحي وجوهُ القومِ مُغْبَرَّةً سودا

وأنشد عمر :

بكوا حُذَيْفَةَ لم يبكوا مثلَهُ
حتى تبيدَ خلائق لم تُخْلَقِ

ولما أبى يزيد أن يؤدي إلى عمر شيئاً ، ألبسهُ جُبّة صوف ، وحمله على جَمَل ، وقال : « سيروا به إلى (دَهْلَك) (١١٠) » ، فلما خرج ومرّوا به على الناس أخذ يقول : « أما لي عشيرة ؟ ! إنما يذهب إلى دَهْلَك الفاسق واللّص ! » ، فدخل سلامة بن نُعَيْم الخَوْلانيّ على عمر فقال : « يا أمير المؤمنين ! اردُدْ يزيد الى محبسه ، فاني أخاف إن أمضيته أن ينتزعه

(١١٠) دهلك : جزيرة في بحر عَيْذاب بالقرب من سواكن ، كان الخلفاء يحبسون بها مَن نقموا عليه ، انظر وفيات الأعيان (٥/٤٤٢) وعيذاب : بليدة على ضفة بحر القلزم ، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد ، انظر معجم البلدان (٦/٢٤٦) ، وسواكن : بلد مشهور على ساحل بحر القلزم ، ترفأ اليها سفن الذين يقدمون من جُدّة ، واهلها سود ، انظر معجم البلدان (٥/١٦٥ – ١٦٦) ، وبحر القلزم ، هو البحر الاحمر ، والقلزم هي مدينة السويس ، ويسمى هذا البحر قديماً في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضع ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٦٩ – ٧٠) .

قومُـه ، فانهـم قـد عصبوا له » ، فردّه عمر إلى محبسه في حلب . فبقى فيه حتى بلغه مرض عمر (١١١) .

ب ـ الانعتاق :

واشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز ، فعمل يزيد في الهرب من السِّجن ، وخاف يزيد بن عبد الملك الذي يتولى الخلافة بعد عمر ، لأنه عذّب أصهاره آل أبي عَقِيْل ، وهم قوم الحجّاج بن يوسف الثّقَفِيّ ، وكانت أمّ الحجّاج بنت محمد بن يوسف الثّقَفِيّ ، وهي ابنة أخي الحجّاج بن يوسف الثّقَفِي ، زوجة يزيد بن عبد الملك .

وكان سبب تعذيبهم ، أنّ سليمان بن عبد الملك لما وليَ الخلافة ، طلب آل أبي عَقِيل . فأخذهم وسلّمهم إلى يزيد بن المهلّب ليخلِّص أموالهم ، فعذّبهم ، وكان الحجّاج قد وافق الوليد بن عبد الملك على إقالة سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد . فحقد سليمان على الحجّاج ، فلما تولى الخلافة انتقم من آل أبي عَقِيل قوم الحجّاج .

وبعث ابن المهلّب إلى (البَلْقَاء) (١١٢) من اعمال دمشق ، وبها خزائن الحجّاج بن يوسف وعياله . فنقلهم وما معهم إليه ، وكان فيمن أُتي به أم الحجّاج زوجة يزيد بن عبد الملك ، وقيل : بل أخت لها ، فعذّبها ، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلّب في منزله ، فشفع فيها ، فلم يشفِّعْه ، فقال : « الذي قرّرتم عليها ، أنا أحمله » . فلم يقبل منه ، فقال لابن المهلّب :

---

(١١١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٥٥/٦ ـ ٢٥٦) وابن الاثير (٤٩/٥ ـ ٥٠) وانظر وفيات الأعيان (٣٢٨/٥ ـ ٣٢٩) و (٣٤٢/٥) .

(١١٢) البلقاء : كورة من اعمال دمشق . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٢ ـ ٢٧٧) .

« أما والله لئن وليتُ من الأمر شيئاً ، لأقطعنّ منك عضواً ! » ، فقال ابن المهلّب : « وأنا والله لئن كان ذلك ، لأَرْميَنَّكَ بمئة ألف » ، فحمل يزيد بن عبد الملك ما كان على أمّ الحجّاج ، وكان ما عليها مئة ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك .

فلما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، خاف يزيدُ بن المهلّب من يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى مواليه ، فأعدّوا له إبلاً وخيلاً ، وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، وأرسل مالاً إلى والي حلَب والى الحرس الذين يحفظونه وقال : إنّ أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء ، وإن وليَ يزيد ابن عبد الملك يسفك دمي » ، فأخرجوه من السجن ، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه ، فركب الدّواب وقصد البصرة .

وكتب ابن المهلّب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه : « إني والله لو وثقتُ بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكني خفتُ أن يليَ يزيد فيقتلني شرّ قتلة » ، فورد الكتاب وبه رمق ، فقال : « اللّهمّ إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقْهُ به وهِضْه (١١٣) فقد هاضني » .

ومرّ يزيد بن المهلّب بطريقه إلى البصرة بالهذَيل بن زُفَر بن الحارث ، وكان يخافه ، فلم يشعر الهذيل إلا وقد دخل يزيد منزله ، ودعا بلبن فشربه ، فاستحيا منه الهذيل ، وعرض عليه خيله وغيرها ، فلم يأخذ منها شيئاً . وكان هروب يزيد من سجنه سنه إحدى ومئة الهجرية (١١٤) (٧١٩ م) .

ج ـ الانطلاق :

ولما مات عمر بن عبد العزيز وبويع يزيد بن عبد الملك ، كتب إلى عبد

---

(١١٣) هاض الشيء : كسره .

(١١٤) انظر التفاصيل في الطبري (٥٦٤/٦ ـ ٥٦٥) وابن الأثير (٥٧/٥ ـ ٥٨) وابن خلدون (١٦٦/٣) .

الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة ، وإلى عَدِيّ ابن أَرْطَاة عامله على البصرة ، يأمرهما بالتحرّز من يزيد بن المهلّب ويعرّفهما هربه ، وأمر عَدِيّاً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب ، فأخذهم وحبسهم ، فيهم : المُفَضَّل ، وحَبِيب ، ومروان بنو المهلّب .

وأقبل يزيد بن المهلّب ، حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة) (١١٥) ، وبعث عبد الحميد بن عبد الرحمن جنداً إليهم عليهم هُشام بن مُسَاحِق العامِريّ ، عامر بني لؤيّ ، فسار باتّجاه ابن المهلّب على عجل وبسرعة ، يريدون عرقلة مسيرته إلى الكوفة أو إلى البصرة ، ويبدو أنهم كانوا يحاولون عرقلة مسيرته إلى الكوفة أولاً وقبل كلّ شيء ، حتى نزلوا (العُذَيْب) (١١٦).

ومرّ يزيد بن المهلّب قريباً منهم ، فلم يقدموا عليه ، لأنّه كان يريد البصرة لا الكوفة ، ومضى يزيد نحو البصرة ، وقد جمع عَدِيّ بن أَرْطَاة أهل البصرة وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة المِغيْرَة بن عبد الله ابن أبي عَقِيْل الثَّقَفِيّ .

وأقبل يزيد في أصحابه الذين معه ، فالتقاه أخوه محمد بن المهلّب فيمن اجتمع إليه من أهله وقومه ومواليه .

وبعث عَدِيّ على كلّ خمس من أخماس البصرة رجلاً ، فبعث على الأَزْد المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، وبعث على تميم مُحْرِز بن حُمْرَان السَّعْدِيّ ، وعلى خمس بكر مُفَرّج بن شَيْبان بن مالك بن مِسْمَع ،

(١١٥) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، انظر معجم البلدان (٢٥/٧) .

(١١٦) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة ، بينه وبين القادسية اربعة أميال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣١/٦) ، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٦/٨) .

وعلى عبد القيس مالك بن المنذر بن الجارود ، وعلى أهل العالية عبد الأعلى ابن عبد الله بن عامر ، وأهل العالية قُرَيْش ، وكِنانة ، والأَزْد ، وبَجِيلة ، وخَثْعَم ، وقَيْس عَيْلان كلّها ، ومُزَيْنة ، وأهل العالية والكوفة يقال لهم : رُبْع أهل المدينة .

وتقدم يزيد ، لايمرّ بخيلٍ من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلاّ تنحّوا له عن طريقه ، وأقبل حتى نزل داره ، فاختلف الناس إليه ، فأرسل إلى عَدِيَ بن أرطاة أمير البصرة ، إن : « ابعثْ إليّ إخوتي أصالحك على البصرة وأخليّك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد بن عبد الملك ما أحب » ، فلم يقبل منه .

وسار حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهله .

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعْطي مَنْ أتاه قِطَعَ الذّهب والفضّة ، فمال الناس إليه . وكان عَدِيّ بن أَرْطاة لا يُعْطِي إلاّ دِرْهَمَيْن درهمَيْن ويقول : « لا يحلّ لي أن أَعطيكم من بيت المال درهماً إلاّ بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمرُ ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أَظُنُّ رجالَ الدِّرهمَيْن تقودُهم إلى الموتِ آجالٌ لهم ومَصَارِعُ
وأكيَسُهم مَنْ قَرَّ في قَعرْ داره وأيقَنَ أنّ الموتَ لا بُدّ واقِعُ

وخرجت بنو عمرو بن تَميم من أصحاب عَدِيّ بن أَرْطَاة ، فنزلوا (المِرْبَد) (١١٧) ، وبعث يزيد بن المهلّب مولىً له ، يقال له : دارس ، فحمل عليهم فهزمهم ».

---

(١١٧) المربد : مربد البصرة من أشهر محالها ، وكان يكون فيه سوق الابل قديماً ، ثمّ صار محلّة كبيرة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات

وخرج يزيد حين اجتمع الناس له ، حتى نزل (جَبّانة بني يَشْكُر) ، وهي النصف فيما بينه وبين قصر الامارة في البصرة ، فلقيه قيس وتميم وأهل الشّام واقتتلوا هُنَيْهَةً ، فحمل عليهم أصحاب يزيد ، فانهزموا .

وتبعهم ابن المهلّب حتى دنا من القصر ، فخرج إليهم عَدِيّ بن أَرْطاة بنفسه ، فقُتل من أصحابه موسى بن الوَجِيه الحِمْيَرِيّ والحارث بن المُصَرَّف الأَوْدِيّ وكان من فرسان الحجّاج وأشراف أهل الشّام .

وانهزم أصحاب عَدِيّ ، وسمع إخوة يزيد ، وهم في محبس عَدِيّ ، الأصوات تدنو والنُشّاب تقع في القصر ، فقال لهم عبد الملك بن المهلّب : « إني أرى أنّ يزيد قد ظهر ، ولا آمن مَنْ مع عَدِيّ من مُضَر وأهل الشّام أن يأتونا فيقتلونا قبل أن يصل إلينا يزيد ، فأغلقوا الباب ثمّ القوا عليه ثياباً » . ففعلوا . . . . ولم يلبثوا إلاّ ساعة حتى جاءهم عبد الله بن دينار مولى ابن عامر ، وكان على حَرَس عَدِيّ ، فجاء يشتدّ إلى الباب هو وأصحابه ، وقد وضع بنو المهلّب متاعاً على الباب ، ثمّ اتّكوا عليه ، فأخذ الآخرون يعالجون الباب ، فلم يقدروا عليه ، وأعجلهم الناسُ فخلّوا عنهم .

وكان سَلْم بن زياد بن أبي سفيان له دار إلى جانب القصر ، فجاء يزيد حتى نزل تلك الدار وأتى بالسّلالم وفتحَ القصرَ ، فأُتي بعديّ بن أَرْطاة فحبسه وقال له : « لولا حبسُك إخوتي لما حبستُك » .

فلما ظهر يزيد ، هرب رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس ومالك بن المُنْذر فلحقوا بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشّام .

وخرج المغيرة بن زياد العَتَكِيّ نحو الشّام ، فلقى خالداً القَسْرِي

الشعراء ومجالس الخطباء ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١١/٨ - ١٢) .

وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيد بن عبد الملك بن المهلب : قد اقبلوا بأمان يزيد بن المهلب ، وكل شيء ارادوه فسألاه عن الخبر ، فخلا بهما سرّاً من حُمَيْد واخبرهما وقال : « أين تريدان ؟ » ، فأخبره بأمان يزيد ، فقال : « إنّ يزيد قد ظهر على البصرة ، وقتل القتلى وحبس عُدَيّاً » ، فأرجعا » ، فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما ، فقال لهما حُمَيْد : « أنشدكما الله أن تخالفا ما بُعثتما به ، فانّ ابن المهلّب قابل منكما ، وإنّ هذا وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء ، فلا تسمعا مقالته » ، فلم يقبلا قوله ، ورجعا به إلى دمشق .

وأخذ عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة خالدَ بن يزيد بن المهلّب وحمالَ بن زَحْر ، ولم يكونا في شيءٍ من الأمر ، فأوثقهما وسيّرهما إلى الشّام ، فحبسهما يزيد بن عبد الملك ، فلم يفارقا السِّجنَ حتى هلكا فيه .

وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من الأموال وُزِّعت على أهلها ويمنّيهم الزيادة ، وجهّز أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشّام والجزيرة (جزيرة ابن عمر) ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا إلى العراق وقدِما الكوفة ونزلا (النُخَيْلَة) (١١٨) .

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب وصول مَسْلَمة وأهل الشّام راعهم ذلكَ فبلغ خوفهم ابن المهلّب ، فخطب الناس وقال : « قد رأيت أهل العسكر وخوفهم ، يقولون : جاء أهل الشّام ومَسْلَمةً ! وما أهل الشّام ؟ ! هل هم إلاّ تسعة أسياف ، سبعة منها إلى ، وسيفان عليّ ؟ وما مَسْلَمة إلاّ جرادة صفراء ، أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاّحين وأوباش وأخلاط ! ؟ أوَ لَيْسُوا بشراً يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ! ؟ أعيروني سواعدكم تصفّقون بها وجوههم وقد ولّوا الأدبار » .

---

(١١٨) النَخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشّام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٧٦ ــ ٢٧٧) .

ولما سيطر يزيد على البصرة ، بعث عمّاله على الأهواز وفارس وكَرْمان ، وبعث على خُراسان مُدْرِك بن المهلّب وعليها عبد الرحمن بن نُعَيْم ، فقال لأهلها : « هذا مُدْرِك ابن المهلّب قد أتاكم ليُلْقي بينكم الحرب وأنتم في بلاد عافية وطاعة » ، فسار بنو تَميم ليمنعوه ، وبلغ الأَزْد بخراسان ذلك ، فخرج منهم نحو أَلفَيْ فارس ، فلقوا مُدْرِكاً على رأس المفازة ، فقالوا له : « إنك أحبّ النّاس إلينا ، وقد خرج أخوك ، فان يظهر فانما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وأحقّه بذلك ، وإن تكن الأخرى فما لك من أن البلاء راحة ! » فانصرف مدرك عنهم .

ولما استجمع أهل البصرة ليزيد ، خطبهم وأخبرهم أنه يدعوهم لكتاب الله وسُنة نبيّه ويحثّهم على الجهاد ، ويزعم أنّ جهاد أهل الشّام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم !

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناكَ والياً ومولىً عليك ، فما ينبغي لك ذلك » ، ووثب أصحابه فأخذوا بفمه وأجلسوه .

وخرج الناس من المسجد ، فمرّ الحسن البصريّ بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد وهم يقولون : تدعونا إلى سنّة العُمَرَيْن ! فقال الحسن البصري : « كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين تَرَوْن ثم يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم ! فلما غضب نصب قَصَباً ثم وضع عليها خِرَقاً ، ثم قال : إني قد خالفتهم ، فخالفوهم ! قال هؤلاء : نعم . ثم قال : إني أدعوكم إلى سُنّة العُمَرَين ، وإن من سُنّة العُمَرَيْن أن يوضع في رجله قيد ، ثم رُدّ إلى محبسه » . فقال ناس من أصحابه : لكأنك راضٍ عن أهل الشّام ! فقال : « أنا راضٍ عن أهل الشّام ! قَبّحَهُم الله وبَرّحهم ! أليس هم الذين أحلّوا حرم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،

يقتلون أهله ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ! قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم ، يحملون الحرائر ذوات الدين ، لايتناهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام ، فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها . . . . عليهم لعنة الله وسوء الدار » .

ثمّ إنّ يزيد سار من البصرة واستعمل عليها أخاه مَرْوان بن المهلّب ، وأتى (واسِطاً) ، وقد كان استشار أصحابه حين توجّه نحو (واسِط) ، فقال له أخوه حبيب وغيره : نرى أن تخرج وتنزل بفارس ، فنأخذ بالشِّعاب والعِقاب ، وندنو من خُراسان ، ونطاول أهل الشّام ، فانّ أهل الجبال يأتون إليك ، وفي يدك القلاع والحصون . فقال : « ليس هذا برأيي ، تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل ! » ، فقال حبيب : « إنّ الرأي الذي كان ينبغي أن يكون أوّل الأمر قد فات ، قد أمرتُك حيث ظهرتَ على البصرة أن توجّه خيلاً عليها بعض أهلكَ إلى الكوفة ، وإنما فيها عبد الحميد ، مررتَ به في سبعين رجلاً فعجز عنك فهو عن خيلك أعجز . فسبق إليها أهل الشّام ، وأكثر أهلها يرون رأيك ، ولأن تلي عليهم أحبّ إليهم من أن يلي عليهم أهل الشّام ، فلم تطعْني . وأنا أشير الآن برأي : سرِّحْ مع بعض أهلك خيلاً كثيرة من خيلك ، فتأتي الجزيرة (جزيرة ابن عمر) وتبادر إليها ، حتى ينزلوا حصناً من حصونهم ، وتسير في أثرهم ، فاذا أقبل أهل الشّام يريدونك ، لم يَدَعوا جندك بالجزيرة يُقْبِلون إليك ، فيقيمون عليهم فيحبسونهم عنك حتى تأتيهم ، ويأتيك مَنْ بالموصل من قومك ، وينفضَ إليك أهل العراق وأهل الثغور ، وتقاتلهم في أرضٍ رخيصة السِّعر ، وقد جعلتَ العراقَ كلّه وراء ظهرك » فقال يزيد : « أكره أن أقطع جيشي » !

ولما نزل (واسطاً) ، أقام بها أياماً يسيرة ، وخرجت سنة إحدى ومئة الهجرية (١١٩) .

د ـ الاخفاق :

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧١٩ م) ، فسار يزيد عن واسط واستخلف عليها ابنه معاوية ، وجعل عنده بيت المال والخزائن والأُسراء .

وسار يزيد على فم (النِّيْل) (١٢٠) حتى نزل (العَقْر) (١٢١) ، وقدّم أخاه عبد الملك بن المهلّب نحو الكوفة فاستقبله العبّاس بن الوليد بن عبد الملك بـ (سُوْرَا) (١٢٢) ، فاقتتلوا . وحمل أصحاب عبد الملك على أهل الشّام حملة كشفوهم فيها ، ومعهم ناس من تميم وقيس من أهل البصرة ، فنادوا : الله . . . . الله أن تُسْلِمونا ! وقد اضطرهم أصحاب عبد الملك إلى النهر ، فقال أهل الشّام : لابأسَ عليكم ؛ إنّ لنا جولة في أول القتال ؛ ثمّ كرّوا عليهم فانكشف أصحاب عبد الملك وانهزموا وعادوا إلى يزيد .

وأقبل مَسْلَمة بن عبد الملك يسير على شاطئ الفرات إلى (الأنبار) (١٢٣) ،

---

(١١٩) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٧٨ ــ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/٧١ ــ ٧٧) وابن خلدون (٣/١٦٦ ــ ١٦٩) ، وانظر خلاصة الذهب المسبوك (٢٦) .

(١٢٠) النيل : بليدة في سواد الكوفة قرب (حِلّة) بني مِزْيد ، يخترقها خليج كبير ، يتخلّج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٨/٣٦٠) .

(١٢١) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٦٤ ــ ١٦٥) .

(١٢٢) سورا : موضع بأرض بابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٦٨) .

(١٢٣) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٤٠ ــ ٣٤٢) ، وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم . وقد أطلق اسم الأنبار على محافظة (الرمادي) احدى محافظات العراق التي تتاخم سورية شمالاً والأردن غرباً .

وعقد عليها الجسر ، فعبر وسار حتى نزل على ابن المهلّب .

وأتى إلى ابن المهلّب ناس من أهل الكوفة كثير ومن الثغور ، فبعث على مَنْ خرج إليه من أهل الكوفة ورُبْع أهل المدينة عبدَ الله بن سفيان بن يزيد بن المُغَفَّل الأزدي ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد النُّعمان بن إبراهيم ابن الأشتر ، وعلى كِنْدة وربيعة محمد بن إسحق بن الأَشْعث ، وعلى تميم وَهمْدان حنظلة بن عَتَّاب بن ورقاء التَّميمِي ، وجمعهم جميعاً مع المُفَضَّل بن المهلّب .

وأَحصى ديوانَ ابن المهلّب مئة ألفٍ وعشرين ألفاً ، فقال : « لوَدِدْتُ أنّ لي بهم مَنْ بخُراسان من قومي » ، ثم قام في أصحابه فحرّضهم على القتال فقال : « إنّ هؤلاء القوم لن يَرُدَّهم عن غيِّهم إلاّ الطعن في عيونهم والضرب بالمشرفيّة على هامهم » ، ثم قال : « : « إنّه قد ذُكر لي أنّ هذه الجرادة الصفراء — يعني مَسْلَمَة بن عبد الملك — وعاقر ناقة ثمود — يعني العبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، وكان العبّاس أزرق أحمر ، كانت أمّه روميّة — والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتى كلّمته فأقرّه على نسبه ؛ فبلغني أنه ليس همّهما إلاّ الْتماسي في الأرض ، والله لو جاء أهل الأرض جميعاً وليس إلاّ أنا . ما برحت العَرْصة حتى تكون لي أو لهم » ، فقالوا : نخاف أن تُعَنِّينا كما عَنّانا عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، فقال : « إنّ عبد الرحمن فضحَ الذِّمار ، وفضح حَسَبه ، وهل كان يعدو أجله ! » ، ثم نزل .

وجاءته الجموع الحاشدة تبايعه ، وكان نص البيعة : نبايع على كتاب الله وسنة نبيِّه صلّى الله عليه وسلّم ، وعلى ألاّ تطأ الجنودُ بلادنا ولابيضتَنا ، ولا تعاد علينا سيرة الفاسق الحجّاج .

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة قد عسكر بالنُّخَيْلة ،

وشق المياه ، وجعل مع أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا مع ابن المهلّب وبعثَ بعثاً إلى مَسْلَمَة مع سَبْرَة بن عبد الرحمن بن مخْنَف .

ولكنّ مَسْلَمَة عزل عبد الحميد عن الكوفة ، واستعمل عليها محمد ابن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة ، لأنَّ عبد الحميد تردّد في لقاء ابن المهلّب حين قدم هارباً من السجن في طريقه من حلَب إلى البصرة .

وجمع يزيد رؤوس أصحابه فقال : « قد رأيت أن أجمع اثنى عشر ألفاً . فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلّب حتى يُبَيِّتوا مَسْلَمَة ، ويحملوا معهم البراذع والأُكُف والزُبُل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقيّة ليلتهم . وأمدّه بالرجال حتى أصبح ، فاذا أصبحت نهضت إليهم أنا والناس . فنناجزهم . فاني أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » .

ولكن السَّمَيْدَاع اعترض على يزيد قائلاً : « إنّا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم . وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منّا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا مازعموا أنهم قابلوه منّا » .

وأيدّ أبو رؤبة ، وهو رأس طائفة من المرجئة ، ومعه أصحاب له ، فقال : « صَدَقَ ! هكذا ينبغي » .

فقال يزيد : « وَيْحَكُم ! أتصدّقون بني أُمَيّة أنّهم يعملون بالكتاب والسُنّة ! إنهم يخادعونكُم ليمكروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه . إني لقيتُ بني مَرْوان . فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غَوْراً من هذه الجرادة الصفراء – يعني مَسْلَمة – » . قالوا : لانفعل ذلك حتى يردّوا علينا مازعموا أنهم قابلوه منا ! .

وكان مروان بن المهلّب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام ، وكان الحسن البصريّ يثبّطهم . فلما بلغ ذلك مروانَ قام في الناس يأمرهم بالجدّ والاحتشاد ، ثم قال : « بلغني أنّ هذا الشيخ الضال المرائي – ولم

يسمــه – يشبط الناس ، والله لو أنّ جاره نزع من خُص ّ داره قصبة لظلّ يرعُـف أنفُـه ! أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب حقّنا وأن ننكر مظلمتنا ! أما والله ليَكُـفّنّ عن ذكرنا وعن جمعه سُـقّـاط ((الأَبُلّة)) (١٢٤) وعلُوج فُـرات البصرة – قوماً ليسوا من أنفسنا ، ولا ممّن جرت عليه النّعمة من أحدٍ منّا – أو لأنْحِيَنّ عليه مِبرَداً خشناً » . فلما بلغ الحسن البصريّ ذلك قال : « والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه » ، فقال ناس من أصحابه : لو أرادك ثم شئت لمنعناك ، فقال لهم : « قد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ! آمر ألاّ يقتل بعضكم بعضا مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ! » ، فبلغ ذلك مَرْوان بن المهلّب ، فاشتدّ على أصحاب الحسن وطلبهم حتى تفرّقوا . ولم يدع الحسن كلامه ذلك ، ولكنّ مروان كفّ عنه ولم يصبه بأذى .

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول للناس : « أيّها النّاس ! الزموا رحالكم ، وكفوا أيْدِيَكم ، واتّقوا اللهَ مولاكم . ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة ، وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباقٍ ، وليس الله عنهم بما اكتسبوا براضٍ . إنه لم تكن فتنة إلاّ كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التّيه والخُيَلاء ، وليس يسلم منها إلاّ المجهول الخفيّ والمعروف التّقيّ ، فمن كان منكم خفيّاً فليزم الحق . وليحبس نفسه عمّا يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه واللهِ بمعرفة الله إياه بالخير شَرفا ، وكفى له بها في الدنيا خَلَفا ؛ وَمَنْ كان منكم معروفاً شريفاً ، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا إرادَةَ الله بذلك ، فواهاً لهذا ! ما أسعدَه

(١٢٤) الأبلّة : بلدة على شاطيء دجلة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة ، وهي اقدم من البصرة ، لأنّ البصرة مُصِّرت في ايام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، وكانت الأبلّة حينئذ فيها مسالح من قبل كسرى وقائد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٨٩–٩٠).

وأرشدَه وأعظم أجره وأهدى سبيله ! فهذا غداً – يعني يوم القيامة – القرير عيناً ، الكريم عند الله مآبا » .

وكان اجتماع يزيد بن المهلّب ومَسْلمة بن عبد الملك بن مروان ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجُمُعَة لأربع عشرة مضت من صَفَر ، بعث مَسْلَمة إلى الوضاح أن يخرج بالسُّفن حتى يحرق الجسر ، ثمّ بعث من أحرق الجسر .

وخرَج مسلمة فعَبَّأَ جنود أهل الشّام ، ثم قرب من ابن المهلّب ، وجعل ميمنته جبَلَة بن مَخْرَمة الكِنْدِيّ ، وعلى ميسرته الهُذَيْل بن زُفَر بن الحارث الكِلابي . وجعل العباس بن الوليد على ميمنته سيف بن هانئ الهمداني ، وعلى ميسرته سُوَيد بن القَعْقَاع التميميّ ، وكان مَسْلَمة على الناس . وخرج يزيد بن المهلّب ، وقد جعل على ميمنته حبيب ابن المهلّب ، وعلى ميسرته المُفَضَّل بن المهلّب . وبرز رجل من أهل الشّام فدعا إلى المبارزة . فبرز إليه محمد بن المهلّب ، فضربه محمدٌ ، فاتّقاه الرجل بيده وعلى كفّه كفٌ من حديد . فضربه محمد فقطع الكفّ الحديد ، وأسرع السيّف في كفّه واعتنق فرسه فانهزم .

فلما دنا الوضّاح من الجسر ، ألهب فيه النار ، فسطع دخانه ، وقد اقتتل الناس ونشبت الحرب ، ولم يشتدّ القتال . ولما رأى الناس الدخان ، وقيل لهم : أُحرق الجسر . انهزم أصحاب ابن المهلّب ، فقيل لابن المهلّب : انهزم الناس . فقال : « مِمّ انهزموا ؟ هل كان قتال يُنْهزم من مثله ؟! » ، فقيل له : قالوا أُحرِقَ الجسر ، فلم يثبت أحد ! فقال : « قبحّهم الله ، بَقٌ دُخِّن عليه فطار » .

وخرج يزيد وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه ، فقال :

« اضربوا وجوه مَنْ ينهزم » ففعلوا ذلك بهم حتى كثروا عليه ، واستقبله منهم أمثال الجبال ، فقال : « دعوهم ، فوالله إني لأرجو ألاّ يجمعني الله وإياهم في مكان واحد أبدا ، دعوهم يرحمهم الله ، غَنَم عدا في نواحيها الذِّئب ! » .

وكان يزيد لا يحدِّث نفسه بالفرار ، وقد كان يزيد بن الحَكَم بن أبي العاص الثّقفي ـ وهو ابن أخي عثمان بن أبي العاص (١٢٥) صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وليس بينه وبين الحَكَم بن أبي العاص والدِ مَرْوان نسب ، وأمّه ابنة الزِّبْرِقَان السَّعْدِيّ ، أتاه وهو بواسِط قبل أن يصل إلى العَقْر ، فقال :

إن بني مَرْوان قد بادَ ملكُهم
فان كنتَ لم تَشْعُرْ بذلك فاشْعرِ

قال يزيد : « ما شعرتُ ! » ، فقال يزيد بن الحَكَم بن أبي العاص الثّقفيّ :

فَعِشْ مَلِكاً أو مُتْ كريماً ، وإن تَمُتْ
وسَيْفُك مَشْهورٌ بِكَفِّكَ تُعْذَرِ

قال يزيد : « أما هذا ، فعسى » .

ولما خرج يزيد إلى أصحابه ، واستقبلته الهزيمة ، قال : « ياسَمَيْدَع ! أرأيي أم رأيُك ؟ ألم أُعْلِمْكَ ما يريد القوم ! » بلى والله ، والرأيَ ما كان رأيُك ، وأنا ذا معك لا أُزايلُكَ فمرْني بأمرك » .

ونزل يزيد ونزل سَمَيْدَع في أصحابهما ، وكان يزيد على فرسٍ أشهب ، فأتاه آتٍ فقال : « إنّ أخاك حبيباً قد قُتِل » ، فقال : « لاخيرفي

(١٢٥) انظر سيرة حياته المفصّلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢ ـ ٢٦٩) .

العيش بعده ، قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، وقد ازددتُ لها بغضا . . . . امضوا قُدُما » ، فعلموا أنه قد استقتل ، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال ويخاف الموت . وبقي معه جماعة حسنة وهو يتقدّم فكلما مرّ بخيلٍ كشفها ، أو جماعه من أهل الشّام عدلوا عنه .

وأقبل نحو مَسْلَمة لا يريد غيره ، فلما دنا منه أدنى مَسْلَمة فرسه ليركب ، فعطفت عليه خيول أهل الشّام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد وقتل السَّمَيْدَع وقتل محمد بن المهلّب .

وكان رجل من كلب يقال له : القَحْل بن عَيَّاش ، فلما نظر إلى يزيد قال : « هذا والله يزيد ! واللهِ لأقتلنّه أو ليقتلني ! فمَنْ يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصلَ إليه ؟ » ، فحمل معه ناس ، فاقتتلوا ساعة ، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن القَحْل بآخر رمقه ، فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكان يزيد وأنه هو قاتله وأنّ يزيد قتله .

وأتى برأس يزيد مولى لبني مُرَّة ، فقيل له : أنت قتلته ؟ قال : « لا » ، فلما أتى مَسْلَمة سيّره إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان مع خالد بن الوليد ابن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط .

وقيل : بل قتل يزيد بن المهلّب الهُذَيْل بن زُفَر بن حارث الكلابيّ ، ولم ينزل يأخذ رأسه أنفةً .

ولما قُتل يزيد ، كان المُفَضَّل بن المهلّب يقاتل أهل الشّام وما يدري بقتل يزيد ، وكان كلّما حمل على الناس انكشفوا ، ثمّ يحمل حتى يخالطهم ، وكان معه عامر بن العَمَيْثَل الأَزْدِيّ يضرب بسيفه ويقول :

قد علمتْ أمُّ الصبيّ المولودْ

أني بِنَصْلِ السَّيْفِ غيرُ رِعْدِيد

واقتتلوا ساعة . فانهزمت ربيعة ، فاستقبلهم بالسَّيف يناديهم :

« أيْ معشر ربيعة ! الكَـرَّةَ . . . . الكَـرَّةَ . . . . والله ماكنتم بكُشُفٍ ولا لئام ، ولا هذه لكم بعادة ، فلا يؤتين ّ أهل العراق من قـبلكم اليوم . أيْ ربيعة ! فدتكم نفسي ، اصبروا ساعة من النهار » ، فرجعوا إليه يريدون الحـملة ، فجاءه مَنْ يقول له ما تصنع ههنا ، وقد قُـتل يزيد وحَبيب ومحمدّ وانهزم الناس منذ أمدٍ طويل ؟

وتفرّق الناس عن المفضّل ، فمضى إلى واسِط ، فما كان من العرب أضرب بسيف ولا أحسن تعبية للحرب ولا أغشى للناس منه .

وقيل : بل أتاه أخوه عبد الملك ، وكره أن يُخْبره بقتل يزيد فيستقتل ، فقال له : « إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط » ، فانحدر المفضّل بمَنْ معه من ولد المهلّب إلى واسِط ، فلما علم بقتل يزيد ، حلف ألاّ يكلّم عبد الملك أبدا .

وأسر مَسْلمة نحو ثلاثمائة أسير ، فسرّحهم إلى الكوفة فحبسوا بها وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة ابن مُعَيْط والي الكوفة ، يأمره بضرب رقاب الأسرى ، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى ، فجاء رسول بكتاب من عند مَسْلَمة يأمره بترك قتل الأسرى ، ثمّ أقبل مَسْلَمة حتى نزل (الحِيْرَة) (١٢٦) .

ولما بلغت هزيمة يزيد مدينة واسِط ، غادرها آل المهلّب إلى البصرة ، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحريّة ، ثم لجوّا في البحر ، فلما كانوا بحيال (كَرْمَان) (١٢٧) خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدّواب ، وكان المقدّم عليهم المُفَضّل بن المهلّب .

---

(١٢٦) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له : النجف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٨٦) ، والنجف اليوم قريبة من الكوفة ، وفيها مرقد الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وكان بكَرْمان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المُفضَّل ، فبعث مسلمة قوّات من أصحابه ، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأموال والأرواح .

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى (قَنْدابِيل) (١٢٨) ، فطاردهم أصحاب مَسْلَمَة إلى هناك ، فتفرّق الناس عن آل المهلّب ، ولكن المهالبة تقدّموا بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، منهم : المُفَضَّل ، وعبد الملك ، وزياد ، ومَرْوان بنو المهلّب وثلاثة من أبنائهم ، فبعث مسلمة برؤوسهم إلى يزيد بن عبد الملك .

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك مقتل يزيد بن المهلّب وكثير من آل المهلّب ، سرّه هذا النصر سروراً عظيماً (١٢٩) .

هـ ــ الكارثة :

انتصر مَسْلَمة بن عبد الملك على يزيد بن المهلّب وآل بيته ، فخدم الدولة خدمة لا تُقدّر ، لقضائه على يزيد بن المهلّب الذي خلع يزيد بن الملك ، وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأُمويين .

ومن الانصاف أن نذكر أنّ يزيد بن المهلّب كان قائداً فذّاً وإدارياً حازما . ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلّب ، لأنه قاد جيشاً لايثق به ولا يعتمد عليه . أفراده أكثرهم مرتزقة ، كلّ همهم كسب المال ،

---

(١٢٧) كرمان : ولاية مشهورة في ايران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤١/٧) .

(١٢٨) قندابيل : مدينة بالسند ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٧/٧).

(١٢٩) انظر التفاصيل في الطبري (٥٩٠/٦ ــ ٦٠٤) وابن الأثير (٧٧/٥ ــ ٨٩) وابن خلدون (١٦٦/٣ ــ ١٧٢) ، وانظر المسعودي (١٩٩/٣ ــ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ــ ١٦) والمعارف (٤٠٠) والتنبيه والاشراف (٣٢٠ ــ ٣٢٢) .

لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته .

ولم يكن يزيد بن المهلّب يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة ، وأدرك في أول المعركة بأنه يقود معركة خاسرة ، ولكنه ثبت كالطود وقاتل عن شرفه وأحسابه ، ولم يرض لنفسه الفرار او الاستسلام ، حتى لاتتحدّث العرب حاضراً ومستقبلاً بأنه فرّ أو استسلم ، والموت عنده أهون من مثل هذا الحدث .

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثره من المرتزقة ، ولكنهم كانوا ملتزمين بالدولة ، أما جيش يزيد بن المهلّب فكان من المرتزقة غير الملتزمين بدولة ، أو بمعنى آخر ، فقد كان جيش مسلمة يقاتل عن حاضر مضمون ومستقبل مضمون هو حاضر دولة قائمة ومستقبلها ، أما جيش يزيد فكان يقاتل عن حاضر غير مضمون ومستقبل غير مضمون ، لذلك كان جيش مسلمة يتحلّى بارادة القتال فأنتصر ، وكان جيش يزيد لايتحلّى بهذه المزيّة فانهزم .

أما تفاصيل أسباب هزيمة يزيد بن المهلّب في هذه المعركة ، فسيكون لها ذكر مفصل في الحديث عن يزيد قائدا .

لقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد بن المهلّب وبني المهلّب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وأبرز ولاتها ، وهي خسارة جسيمة بلا مراء .

وأدهى من ذلك وأمرّ ، أنّ الاقتتال الذي نشب بين الاخوة ، أدّى إلى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية في العراق قاعدة الفتح الاسلامي الرئيسة في المشرق الاسلاميّ ، وفي بلاد المشرق الاسلامي كافة قاعدة الفتح الاسلاميّ المتقدّمة ، مما أدىّ إلى انصراف الفاتحين عن الفتح واستعادة الفتح إلى الاقتتال المرير فيما بينهم ، فأصبحت طاقاتهم وجهة إلى انفسهم بدلاً من أن تكون موجهة على أعدائهم ، وأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم ،

فانحسر مدّ الفتح الاسلامي واستعادة الفتح ، وتقلّص نفوذ الدولة في العراق وفارس وخُراسان وكَرمان وسِجِستان وما وراء النهر وسائر المشرق الاسلامي ، وأصبحت تلك القواعد الرئيسة والمتقدّمة تعجّ بالفتن والاضطرابات والفوضى ، .

وانتهز هذه الفرصة السانحة العباسيّون ومن ورائهم الفرس للقضاء على الدولة الأمويّة ، وأصبح دعاة بني العبّاس وعلى رأسهم أبو مُسْلِم الخُراسانيّ يسرحون ويمرحون في بلاد المشرق الاسلامي كافة وبخاصة بلاد فارس وخُراسان بحريّة كاملة تحت سمع وبصر ولاة الدولة الأمويّة العاجزين عن اتخاذ إجراءات مؤثِّرة ، لأنّ الخرق اتسع على الرّاقع – كما يقول المثل العربي المشهور .

لذلك كان انتصار مَسْلَمَة على يزيد بن المهلّب في هذا الاقتتال انتصاراً تعبوياً ، ولكنه كان هزيمة سَوْقيّة (أستراتيجيّة) على المدى القريب والبعيد أيضاً .

والانتصار التعبوي ، لا قيمة له بالنسبة للهزيمة السّوقيّة كما هو معروف .

(يتبع)

الفهرس

الصفحة

مجلة

المجمع العلمي العراقي

انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

سعر النسخة دينار ونصف

وتضاف اليها اجرة البريد



توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

- البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .
- البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)